منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1972) السنة الثامنة - السبت (27) تشرين الثاني 2010

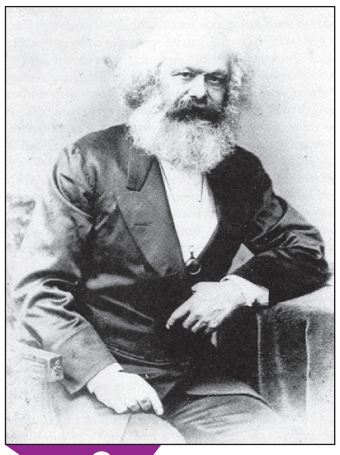

2

ماركس الحالم
ماركس العالم

8

علي الوردي: هكذا
قرأت كارل ماركس

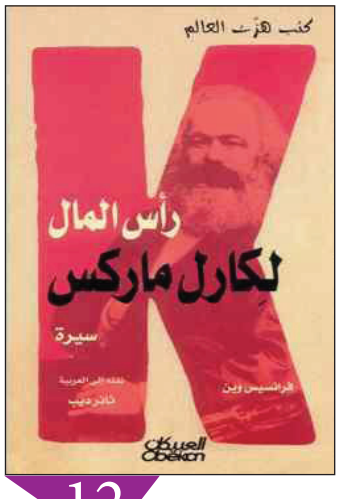

12

راس المال
كتاب يتجدد كل يوم

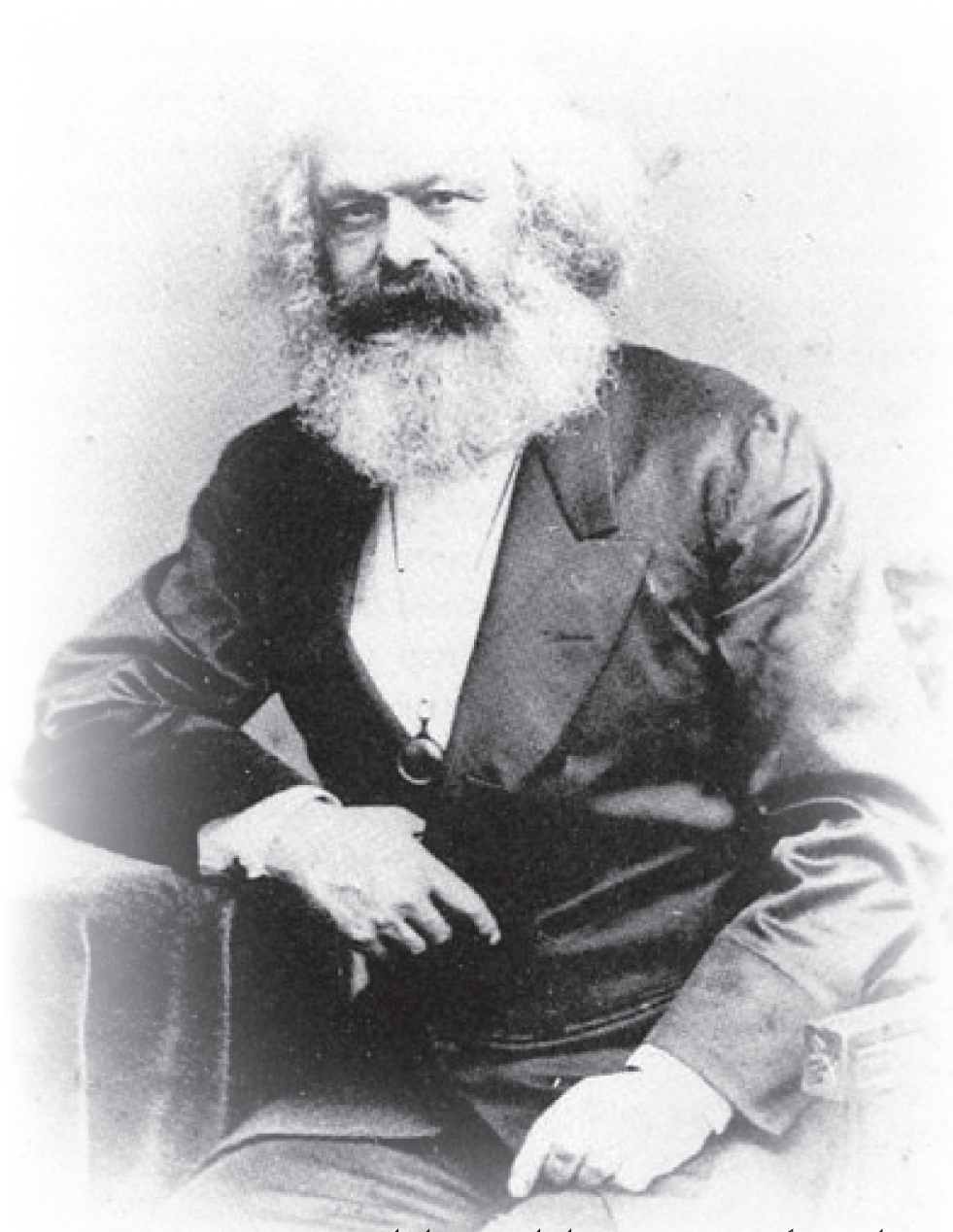

ماركس العالم

ماركس العالم

رأى كارل ماركس في الإيديولوجيا عقيدة مضللة، مخادعة مهمتها حجب الواقع ببشاعته وصراعاته وتناقضاته عن نظر الناس، لا سيما الطبقات المضطهدة (بفتح الطاء). أو هي وعي زائف، يصدر عن عالم زائف، وبذا هي أداة من أدوات الطبقات المهيمنة والسلطات الحاكمة لإدامة هيمنتها وحكمها. وأخطر تلك الإيديولوجيات هي التي يجري إضفاء طابع القداسة عليها، كما لو أنها رسالة قوة علوية، مفارقة، جبارة تخدّر النفوس والعقول، وتزرع القناعة بأن ما هو واقع هو في الوقت نفسه حقيقي ومعقول، ومقدّر، لا محيد عنه. ولكن؛ أليس في فكر ماركس ذاته عوالق إيديولوجية، وأحلام هي وليدة الجانب العاطفي الانفعالي من شخصيته، ولا سيما في المرحلة المبكرة من حياته السياسية والفكرية.. عوالق إيديولوجية وأحلام لا يمكننا مطلقاً إثباتها بالتحليل العلمي المستند إلى معطيات واقع تاريخي عياني؟.

سعد محمد رحيم

حاول المفكرون البرجوازيون النيل من علمية الماركسية بجريرة استطالاتها الإيديولوجية على يد كثر من المتمركسين الدوغمائيين.

وها هو ريمون رويه في كتابه (الممارسة الإيديولوجية) والذي يصف الإيديولوجيا (العقائدية) بأنها ؛ « نظرية، مزورة، مبسطة، غير متحققة، منظومة تأويل يتكئ أصحابها عليها بصورة اعتقادية كيما يطلقوا أحكامهم على المجتمع، وعلى الحياة الإنسانية» يضع الماركسيين إلى جانب العرقيين وعلماء التحليل النفسي (كذا) عادّاً إياهم (جميعهم) عقائديين «يعتنقون تعريفاً مشوها بجرأة عن العلم، لا على اعتبار العلم طريقة تجريبية مشفوعة بالتحقيق، بل على أنه قراءة مسلحة تُرجع (الجلي) الظاهر، إلى (الكامن) وتعتبر الكامن وحده هو الواقع».

يضع التوسير عام ١٨٤٥ فاصلاً حاداً بين ماركس الشاب/ الإيديولوجي الحالم، وماركس الناضج الذي بات يتخلى عن النزعة الإنسانية ذات الطابع البرجوازي الطوباوي، ويضع أسس (المادية التاريخية) بعدّها علماً يرتكز على جهاز مفاهيمي مبتكر انتقل معه إلى إشكالية علمية جديدة. ويستند ذلك الجهاز إلى مصطلحات من قبيل (أسلوب الإنتاج، قوى الإنتاج، علاقات الإنتاج، البنية التحتية، البنية الفوقية، الصراع الطبقي، الخ). وعلى وفق هذا المنظور فرّق التوسير بين مثالية النزعة الإنسانية التي لا يمكنها أن تتوافق مع أطروحة الاشتراكية، وبين الاشتراكية التي هي مفهوم علمي. فالنزعة الإنسانية ذات محتوى أخلاقي مثالي «تؤسس التاريخ والسياسة على ماهية الإنسان». وتستعير مصطلحات من قبيل الاستلاب، والنزعة أو الغائية التاريخية، وتفشل في التعرف على الواقع التاريخي، بل إنها تموهه فيما الأمر يتطلب طرح المشاكل وتسميتها بأسماء علمية. وهنا يتحدث التوسير عن نزعة لا إنسانية، نظرية (علمية) عند ماركس.. يقول:

« إن النزعة اللاإنسانية النظرية عند ماركس تعني إذن، رفض تفسير التشكيلات الاجتماعية وتاريخها، تأسيساً على مفهوم عن الإنسان له ادعاءات نظرية (= علمية)؛ أي الإنسان كذات مالكة لرغباتها، ولأفكارها، ولأفعالها ونضالاتها».

فكانت القطيعة التي أسس لها ماركس هي مع النزعة الإنسانية المثالية. هذه القطيعة، ويا للمفارقة، جعلته لا ينطلق بحسب (التوسير) من الإنسان، من أجل أن يصل إلى البشر الواقعيين.وكان التوسير قد استنجد بمفاهيم ومناهج البنيوية والابستمولوجيا كي يعود بنا إلى ماركس ويزيل عنه ما علق به من بقايا الفلسفة المثالية (الألمانية)، فالتاريخ كما يؤكد، ليس له ذات بل محرك هو الصراع الطبقي، وأن التشكيلات الاجتماعية وتكوين معرفة (علمية) عنها لا تتحدد بالطبيعة الإنسانية، وإنما هي «علاقة؛ علاقة الإنتاج التي تشكل وحدة مع البنية التحتية».

فالنزعة الإنسانية هي أداة بيد البرجوازية لحجب الجوهر الاستغلالي للنظام الرأسمالي، وإخفاء ضراوة الصراع الطبقي الذي تتلخص به حركة التاريخ كما جاء في ديباجة (البيان الشيوعي). وقد تفانى التوسير «في بناء تصور خاص عن (العلم الماركسي) الذي لا تعرف كنهه وأسراره إلا تلك الفئة المتخصصة، المتنورة، المالكة للحقيقة، والمؤهلة وحدها للممارسة النظرية، والعارفة الخبيرة بالحدود بين العلم والإيديولوجيا».

ارتأى التوسير قراءة كتاب (رأس المال) من وجهة النظر الفلسفية، وتبيان مكانته في تاريخ المعرفة، فأخضع قراءته لمنهجية علمية صارمة تستعير، كما قلنا، من البنيوية والابستمولوجيا كثراً من مفاهيمها. ومنطلقاً من فرضية أن الماركسية تنطوي على نزعة مضادة للإنسان والتاريخ، مثلما قالت البنيوية. فماركس لم يبدأ من الذات الإنسانية وإنما من البنية الاجتماعية، فالتاريخ لن يكون نتاجاً لفعل الإنسان وإرادته، بل هو حصيلة تفاعل قوى وبنيات محددة. إي أن حركته موضوعية، مستقلة عن إرادة البشر، وحتمية في مسارها.

من حقنا أن نفرّق بين ماركس المستغرق في الرؤية التاريخية، وماركس المهووس بالرؤيا.. بين ماركس (العالم الاقتصادي والمنظر الذي يدرس ويفسّر الواقع والتاريخ ليكشف عن حركتهما الداخلية وقوانينهما) وماركس الحالم بمجتمع (من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته). ولكن بين ماركس العالم/ دارس الواقع، وبين ماركس الحالم/ النبوئي خيط رابط. وعموماً تعرّض ماركس النبوئي للتسفيه، من قبل منتقديه، أكثر مما تعرض له ماركس الناقد للمجتمع الرأسمالي، والعالم المحلل الذي وضع نظرية في الاقتصاد السياسي. ولكن، في نهاية المطاف، ليس من الصواب إدانة ماركس الإيديولوجي الحالم لمصلحة ماركس العالم، ورفض الأول كلياً والاحتفاء بالثاني كما لو أننا أمام كائنين مختلفين مثلما فعل التوسير. ولقد احتفظ ماركس العالم بقدر متوازن من ماركس الإيديولوجي، فيما كان ماركس الإيديولوجي المتحمس يرهص لماركس العالم.. لأن شيئاً من الإيديولوجيا ضروري وإلا وقعنا في فخ العلموية، وفي فخ القراءة المجردة للواقع الحي.

وأظن أن لا أحد متحرر تماماً من سطوة الإيديولوجيا. صحيح أن الإفراط في الإيديولوجيا قاد دوماً إلى التخبط والفشل في التعاطي مع متغيرات العالم حيث نكلت التجربة بالتنظير، وسخرت منه، بيد أن التبجح العلمي غيّب بعداً مهماً من أبعاد الوجود الإنساني، ذلك الذي يتعلق بالحلم بعالم أفضل.. بالهدف الذي نرتئيه، والذي لا يخضع كلياً للحسابات العقلانية المجردة.. هدف عالم أفضل ذلك الذي يقع في خانة الممكن التاريخي، حتى وإن لم يتم البرهنة عليه بدقة.

في كل عقل مكوّن إيديولوجي. ولا شك أن أية رؤية للواقع الإنساني والاجتماعي لن يتخلص تماماً من تداعيات الإيديولوجيا، فلكل إنسان، مفكراً كان أو غير مفكر، له منظومته القيمية ورأسماله الرمزي وتحيزاته ورؤيته الخاصة. وعلينا أن نفرّق بين إيديولوجيا مدعومة بالنظر العلمي والتجربة الحية، تصحح منطلقاتها وعناصرها ومحتواها في ضوء الممارسة، وبين إيديولوجيا جامدة تتجلبب بالأوهام، وتوحي بهالة قدسية زائفة وتخطئ معطيات التجربة العلمية والعملية لصالح الأفكار المسبقة.

الاستغراق بالحلم وحده مؤذٍ، غير أن التنصل منه يحيلنا إلى جزء من الطبيعة الصماء ليس إلا.. إن الجزء الإيديولوجي من وعينا لابد أن يحفز ملكتنا العلمية، بشرط أن تقبل الإيديولوجيا هذه بنتائج النظر العلمي مهما كانت. وأن تكون مرنة وقابلة للتغير والتطور في ضوء تلك النتائج.

ارتكزت الفلسفة الماركسية على مبدأ وحدة النظرية والممارسة، وعلى أولوية المادة على الفكر، حيث للمادة وجودها الموضوعي المستقل عن الفكر، وحيث الفكر قادر على معرفة الحقيقة الموضوعية ووعيها. وفي مقدمته لكتاب (رأس المال) يقول ماركس؛ «لا يختلف منهجي الجدلي في الأساس عن منهج هيجل فقط، بل هو نقيضه تماما. إذ يعتقد هيجل أن حركة الفكر التي يجسدها باسم الفكرة هي مبدعة الواقع الذي ليس هو سوى الصورة الظاهرية للفكر. أما أنا فاعتقد. على العكس، أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس حركة الواقع وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان».

تبجح كثر من الماركسيين بأن الماركسية هي النظرية العلمية الوحيدة في العالم، وها هم مؤلفو كتاب (أصول الفلسفة الماركسية) يقولون:

«كما أن الفلسفة الماركسية نظرة علمية للعالم، وهي النظرة الوحيدة العلمية أي التي تتفق وتعاليم العلوم. فما هي هذه التعاليم؟ تعلمنا العلوم أن الكون حقيقة مادية، وأن الإنسان ليس غريبا على هذه الحقيقة، وأنه يمكنه معرفتها، ومن ثم تغييرها كما تدل على ذلك النتائج العملية التي توصلت إليها مختلف العلوم»بالمقابل نجد مفكراً عراقياً معاصراً هو الدكتور فالح عبد الجبار يلخص تعريفه للنظرية الماركسية بالقول أنها «نظرية تحليل النظام الرأسمالي ونقده، ونظرية البحث عن الإمكانات التاريخية لنقد وتجاوز الرأسمالية». ويرى أن هذا التحليل انحصر موضوعياً في أوربا الغربية، وكرس مادة أبحاثه للفترة من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر... «ومهمة نقد الرأسمالية وتحليل أشكالها المتطورة، المتحولة باستمرار، والبحث عن سبل تجاوزها مهمة راهنة، وهي أساس استمرار الماركسية ما بعد ماركس». وهذا ما راهنت وتراهن عليه الماركسية بعد رحيل ماركس.

كان الميدان الذي كرس له ماركس جلّ وقته وجهده الفكري هو ميدان المجتمع والاقتصاد السياسي. وعندئذ لم ينطلق من مسلمات إيديولوجية مسبقة، بل خاض معاناة قراءة الواقع (الرأسمالي) ليكتشف أن «العلاقة بين رأس المال والعمل هي المحور الذي يرتكز عليه كامل نظامنا الراهن» وأن «العمل هو مصدر كل أنواع الثروات ومقياس كل القيم.. إن قيمة أي سلعة تقاس بالعمل اللازم لإنتاجها». وأن الرأسمالي يسطو على القيمة الزائدة التي ينتجها العامل بالعمل الزائد، الأعلى والأكثر من الوقت الضروري للتعويض عن الأجر. وكل القيمة الزائدة، مهما كانت الطريقة التي تتوزع بها كربح رأسمالي، أو ريع عقاري أو ضريبة.. الخ هي عمل غير مدفوع الأجر كما

كان الميدان الذي كرس له ماركس جلّ وقته وجهده الفكري هو ميدان المجتمع والاقتصاد السياسي. وعندئذ لم ينطلق من مسلمات إيديولوجية مسبقة، بل خاض معاناة قراءة الواقع (الرأسمالي)

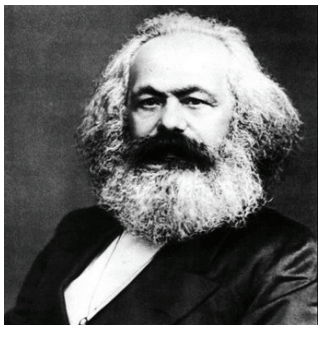

يلخصه أنجلس.. وبحسب ماركس فإن القيمة الزائدة ليست من اختراع المرحلة الرأسمالية؛ «فحيثما يكون هناك جزء من المجتمع مهيمناً هيمنة مطلقة على استثمار وسائل الإنتاج، فإن الشغيل عبداً كان أو قناً أو حراً مرغم على أن يؤدي (إلى جانب العمل الضروري لبقائه الخاص) عملاً زائداً بغية إنتاج وسائل البقاء لمالك وسائل الإنتاج سواءً كان هذا المالك أرستقراطياً أثينياً أو ثيوقراطياً ايتروسكياً، أو سيداً رومانياً، أو بارونا نورماندياً، أو مالك عبيد أمريكي، أو نبيلاً من والاشيا، أو مالك أراض معاصراً، أو رأسمالياً».

كان القرنُ التاسع عشر قرن الحلم أيضاً، إلى جانب كونه قرن الثورة الصناعية وتبلور الطبقة العاملة وثوراتها المتواترة. كانت النزعة السائدة (لا تلتفت وراءك) هي الصدى للشعار البرجوازي الكاسح (دعه يعمل.. دعه يمر) فالثورة الصناعية، مع الثورة الاجتماعية التي رافقتها، وفلسفة الثورة نفسها تغوي بالنظر إلى الأمام.. كانت المغامرة الغربية تمضي بلا هوادة نحو الثراء بمعناه المركب..كانت الحداثة مدفوعة بماكنة (القطيعة والزحزحة) حتى وإن لم تكن مثل هذه المصطلحات قيد التداول بعد.. يقول جاك ديريدا؛

«لا تستطيع الثورة الاجتماعية في القرن التاسع عشر أن تستخلص شعرها من الماضي، ولكنها تستطيع ذلك من المستقبل فقط. وإنها لا تستطيع أن تبدأ مهمتها الخاصة قبل أن تكون نفسها قد تخلصت من كل خرافة إزاء الماضي. فثورات الماضي كانت تحتاج إلى ذكريات تاريخية لكي تخفي عن نفسها مضامينها الخاصة، ويجب على الثورة في القرن التاسع عشر أن تترك الموتى يدفنون أمواتهم لكي تحقق شيئها الخاص، لكي تحقق مضمونها الخاص مجدداً». غير أن ماركس كان يدرك مدى ومغزى سلطة الماضي على الحاضر والمستقبل؛ ثقل التاريخ إن شئت.. المخزون الضاغط على الذاكرة.. الماضي الذي يتسلل إلى الحاضر والمستقبل ليلونهما بلونه، بهذا القدر أو ذاك، ولكن أبداً من خلال البشر صنّاع التاريخ، حتى وهم يتوجهون إلى المستقبل، ويحاولون النسيان أو التنكر لما خلّفوه وراءهم، فمثلما يقول ماركس؛

«فإن تقاليد جميع الأجيال الميتة تثقل بعبء باهظ دماغ الأحياء، وحتى حينما يبدو البشر منهمكين في التحول والتطور، هم والأشياء، وفي إنشاء شيء جديد تماماً، ففي هذه الأوقات بالضبط من الأزمة الثورية، يبتغون في خوف أرواح الماضي، مستعيرين أسماءها، وشعاراتها، وملابسها، وذلك لكي يظهروا على المسرح الجديد للتاريخ ضمن هذا اللباس التنكري المحترم، وبهذه اللغة المستعارة». ويخترق اللباس التنكري المحترم واللغة المستعارة شكل القناعات والعقائد (الإيديولوجيات)، لتغدو الأخيرة حالة هوس ووسيلة سلطة في ملعبة السياسة.. تتحول الإيديولوجيا إلى أداة سيطرة من طريق جعل «عناصر السحر اللاعقلية تتغلغل في نظام الإدارة المخطط والمسيّر بصورة علمية، وتصبح جزءاً لا يتجزأ من التنظيم العلمي للمجتمع» على حد تعبير ماركوز. وهنا لن يكون البحث عن الحقيقة الموضوعية هي المبتغى، بل الأداء الطقسي الذي يصون الجوهر العقائدي بالضد من إفرازات التجربة الداحضة. فالوعود المرجأة بفعل معاكسات الوقائع ستحوّل إلى وسيلة قمع وتعبئة وتخدير في آن معاً. وسيجري تكذيب الواقع مهما كانت درجة صراحته ووضوحه لمصلحة الوعد الإيديولوجي مهما كشف الأخير عن هشاشته ولاتاريخيته ولامعقوليته واستحالته المنطقية والواقعية، فتتلاشى الحدود بين الصحيح والخاطئ، وبين الوهم والحقيقة، وبين الصدق والكذب. وللأسف هذا ما وقع فيه أكبر تجربة ماركسية تطبيقية ممثلة بالشيوعية السوفياتية.

إن مقتضيات السلطة في الدولة السوفياتية والظروف التي أحاطت بنشأتها وتقلباتها داخلياً ودولياً، فرضت تأويلات بعينها للماركسية في المنظور السوفياتي، وتخريجات من المشكوك فيه أن ماركس كان يرضى بها كلها إن كان حياً. فقد سُحب ماركس عنوة في أحايين كثيرة إلى مناطق شائكة وجرى تفسير مفاهيمه وتصوراته لتسويغ سلوكيات وقرارات وإجراءات سياسية هي بالضد في جوهرها من مفاهيمه وتصوراته. أو حصل تحريف في الرؤية للواقع، وهذا أدهى وأخطر، بعيداً عن الحقائق الحاصلة على الأرض، لتتلاءم مع اتجاهات النظرية كما فُسرت.

ربما، كان بعض الماركسيين يستعيدون اليوم، بشيء من التأمل الذاهل ما صرح به كاوتسكي مذ كانت ثورة أكتوبر في فجرها؛ «إذا ما نجحت الثورة الروسية فذلك دليل على فساد الماركسية».. أعتقد أن هذا القول يخفي قولاً آخر، مسكوتاً عنه: (ستفشل الثورة الروسية) أو: (ستكون الثورة الروسية أي شيء سوى أن ننعتها بالماركسية) أو: (الثورة الروسية الناجحة ستقوض أسس النظرية الماركسية). غير أن الثورة الروسية فشلت في نهاية المطاف؛ فهل من حق الماركسيين، أو بعضهم أن يتشدقوا بالقول: (لقد كان ماركس على حق إذن). أظن؛ نعم إلى حد... ولكن ليس على سبيل العزاء أو التسويغ أو الهرب من المسؤولية. بل، وهذا ما يجب؛ عبر تحرير ماركس الناقد الجدلي العلمي من سجن الدوغمائية والأرثوذكسية التي وضعه فيها كثر من المتمركسين، وموضعته تاريخياً في مكانه الحقيقي، ناقداً لنظم الاستغلال والاستعباد والفساد والظلم الاجتماعي والفوارق بين البشر بأشكالها كلها.

> إن الجنة التي على الأرض، كما تخيلها ماركس، ما زالت ممكنة، ولكن ليس في المستقبل القريب.. خطأ ماركس أنه رأى أن فرصة تحقق فردوسه سانحة وقطوفه دانية.

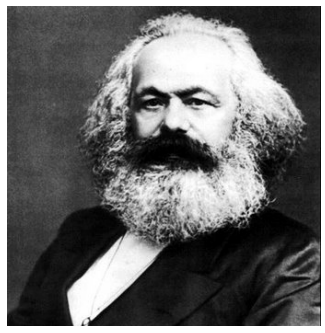

تحيلنا مقولة كاوتسكي إلى السؤال الآخر الصادم؛ هل خان لينين الماركسية بقصد أو من دون قصد؟ هل كانت اللينينية وبالاً على الماركسية مثلما يدّعي بعضهم؟. وأيضاً: هل أعاقت الثورة الروسية وما أحدثته من تخلخل في المحيط الرأسمالي الثورة الاشتراكية المرتقبة في ألمانيا وإنكلترا، بعدما خلقت فضاءً سياسياً جعلت الرأسمالية في تلك البلدان تعيد حساباتها وتغير من إستراتيجيات المواجهة؟ أم أن الماركسية ـ اللينينية هي مقترح تاريخي واحد، في سياق ممتد، يحبل بمقترحات أخرى تنهل من فكر ماركس؟.

لم يطلق لينين على الثورة الروسية صفة الاشتراكية منذ البدء، وإنما نعتها؛ كونها «ثورة برجوازية بقدر ما أن صراع الطبقات في الريف لم يتطور بعد..» مؤكداً أن الثورة الاشتراكية ستكون نتيجة انفجار التناقضات في بلد رأسمالي كامل النضج. ومعلقاً بفكرة «أن الثورة الروسية لن تنقذها إلا الثورة الألمانية».

بقي لينين مخلصاً؛ ولكن ليس إلى نهاية الحد لنبوءة ماركس ورؤياه عن الثورة المرتقبة في البلدان المتقدمة صناعياً التي بلغت فيها قوى الإنتاج درجة كافية من التطور تؤهلها لتغيير علاقات الإنتاج الرأسمالية إلى اشتراكية.

ففي أي مكان، مع قاعدة إنتاجية متخلفة، وبروليتاريا غير ناضجة ومحدودة، وعدم توفر شروط صراع طبقي حاسم يصعب التحدث عن الانتقال إلى الاشتراكية، وهذه من بديهيات الماركسية الكلاسيكية. ولذا فإن الدولة السوفياتية طرحت ماركسية سوفياتية؛ هي مقترح واحد (للماركسية) له عثراته الكثيرة، في تجربة شائكة ودراماتيكية وثرية بمعطياتها ودروسها، لا بد لأي توجه ماركسي حالي ومستقبلي أن يدرسها بتمحيص وتجرد وموضوعية إلى جانب التجارب الأخرى التي وصفت بالاشتراكية على مدار قرن تقريباً، لإغناء المفاهيم الماركسية الأساسية من جهة، وتوطيد أسس نظرية عمل أخرى مرنة تكون في مستوى التحديات التي يفرضها التطور الذي بلغته الرأسمالية بآفاقها العولمية، في الحاضر والمستقبل.

إن الجنة التي على الأرض، كما تخيلها ماركس، ما زالت ممكنة، ولكن ليس في المستقبل القريب.. خطأ ماركس أنه رأى أن فرصة تحقق فردوسه سانحة وقطوفه دانية. ولأنه لم يحسب حساب: مرونة الرأسمالية العالية وقدرتها على التكيف مع أزماتها، ونهبها للعالم الثالث والتي بها استطاعت أن تقلل من غلواء إفقار البروليتاريا (النسبي والمطلق) والتقدم الهائل في قوى الإنتاج في ظل الرأسمالية، والدخول في مرحلة الموجة الثالثة، (إذا ما استعرنا اصطلاح الفين توفلر) وتوسع أعداد أصحاب الياقات البيض على حساب أعداد أصحاب الياقات الزرق. ولكن إلى أي مدى يمكن أن يبقى مفعول قانونه ساري المفعول؛ (إن تطور القوى المنتجة سيطيح بعلاقات الإنتاج القائمة بعد أن تغدو الأخيرة عقبة أمام ذلك التطور).. هل سيحدث هذا على المدى البعيد. وهل أن رؤيا (من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله، أو حتى حاجته) ستصبح ممكنة في ظل التقدم الهائل للعلم وتكريس مؤسسات المجتمع المدني المستقلة عن السلطات القديمة الراسخة، وصعود كتلة تاريخية جديدة تستثمر مساوئ الرأسمالية وتناقضاتها للإطاحة بها؟.

يتحدث كورنيلوس كاستورياديس في فصل من كتابه (التأسيس المتخيل للمجتمع) عن أولئك الذين يمتهنون مهنة (الدفاع عن ماركس)، «ويهيلون في كل يوم فوق جثته طبقات جديدة كثيفة من أكاذيبهم أو من غبائهم». ومقصد كاستورياديس، هنا، هو هذا الميل إلى تحجير ماركس، وتحويل فكره الحي إلى إيديولوجيا، وبالتحديد إلى معنى الإيديولوجيا التي مجّها ماركس نفسه، حين رأى فيها وعياً مضللاً زائفاً؛ «جملة من أفكار تتعلق بواقع ما، لا لتضيئه وتغيره بل لتحجبه وتبرره ضمن المتخيل الذي يتيح للناس أن يقولوا شيئاً ويفعلوا شيئاً آخر، وأن يظهروا على غير ما هم عليه».

بقي ماركس الذي يتململ تحت الركام الكثيف من الأكاذيب والغباء يُهاجم بجريرة لم يرتكبها؛ جريرة وجود هذا الركام فوق جسده ولا أريد أن أقول؛ جثته.. جريرة حسب حسابها، وأنكرها ودانها وحذّر منها، ونصب عينه البديل الذي هو الفكر الحي الجدلي المتوسل بالعلم، لا غيره، والناظر إلى التاريخ أبداً.

يريدنا كاستورياديس أن لا نكتفي في البحث عن معنى الماركسية فيما كتبه ماركس حصراً، وإلا نكون قد تنكرنا لمبدأ في الماركسية ذاتها يقول أن «دلالة نظرية ما لا يمكن فهمها بمعزل عن الممارسة التاريخية والاجتماعية التي تتوافق معها، والتي تتغلغل داخلها أو تشكل ستاراً لها» فإذن؛ ولكي نجري حساباً ختامياً مع الفكر الماركسي لابد أن نفحص مصير المذهب داخل التاريخ حيث غدت الماركسية إيديولوجية «بوصفها مذهباً للعديد من الشيع،التي أدى انحطاط الحركة الماركسية الرسمية إلى تكثيرها». وبحسب كاستورياديس نفسه فإننا لا نعثر طوال أربعة عقود على تطبيقات «مثمرة للنظرية، بل حتى على مبادرات لتوسيعها وتعميقها». وهنا تقتضي مسؤوليتنا الأخلاقية إعادة نظر جذرية بالماركسية وتحليلها «ذلك أن الماركسية ذاتها في أفضل ما تعبّر عنه روحها، وفي إدانتها الصارخة للجمل الجوفاء، وللإيديولوجيات، وفي مطالبتها بالنقد الذاتي المتواصل، تجبرنا على الانكباب على مصيرها الواقعي». وإن كان كاستورياديس، في النهاية، لا يعزو مسؤولية هذا المصير إلى ماركس إلا أنه يمضي قدماً، رافضاً عزل المنهج (الماركسي) عن المحتوى التاريخي مثلما حاول جورج لوكاش أن يفعل. وطارحاً سؤالاً حاسماً مؤداه «إذا لم يقدم التصور الماركسي التفسير المطلوب للتاريخ، فإن هناك ربما تصوراً آخر في وسعه أن يقدم مثل هذا التفسير. وفي هذه الحالة، ألن يكون العمل على بناء تصور جديد (أفضل) هو المهمة الأكثر إلحاحاً؟».

ولا نعلم إن كان كاستورياديس يدفعنا إلى نبذ الماركسية (التي ورثناها) جملة وتفصيلاً ونحن ننكب على البحث عن بناء تصور آخر، أم علينا أن نوسع الماركسية ونعمقها للوقوع على التفسير الأفضل؟.

وماركس الوفي للعلم والحقيقة لابد أن يقر بما يقتضيه قانون المعرفة من السعي للإجابة على السؤال الابستمولوجي؛ ما الذي يجعل نظرية ما تتجمد وتكف عن التوسع والتعمق؟ لماذا تكون نظرية ما مغلوطة أو ناقصة؟. وبطبيعة الحال؛ لن يسوّغ نبل الهدف وثقله الأخلاقي والإنساني، أو يرمم ويصحح خلل المنظور التاريخي الذي يقدّمه؟ وقد تكون نظرية ما صحيحة ومنطقية، ولا تكون كذلك حين تُحاكم بمعطيات وإفرازات الواقع التاريخي. إذ تتجلى دلالة أية نظرية وصحتها عبر علاقتها بالممارسة التاريخية. فالنظرية نفسها حتى تكون مرنة وقابلة للتوسع والتعمق، وقادرة على تجاوز نقاط ضعفها، لابد أن تقرأ الواقع التاريخي في كل لحظة.. تغنيه وتغتني به.. تتطور وتتحول وهي في خضم سعيها لتطويره وتحويله. وفي الأحوال كلها فإن؛ «الفكر لا يستطيع أن يحقق مثل هذا التغير إلا إذا تجاوز نفسه في الممارسة» كما يقول ماركوز.

هنا، علينا أن نكون حذرين؛ كي لا نقع في مطب الرضوخ لمقولة أن الواقعي معقول وحقيقي. هذا ما يسعى ماركوز إلى دحضه ليلقي على أسماعنا هذه العبارة المستفزة «إن ما هو كائن لا يمكن أن يكون حقيقياً». بعدما وُظفت العقلانية التكنولوجية سياسياً لتكريس حالة السيطرة والتحكم. وحتى العلم نفسه «قد أُتخذ، بفعل منهجه ومفاهيمه، وسيلة لتعزيز عالم ظلت فيه السيطرة على الطبيعة مرتبطة بالسيطرة على الإنسان». فحجبت المنجزات العقلانية للرأسمالية، عن الأنظار، لا عقلانية النظام القائم. وبالتالي تكون وظيفة الماركسية هي أن تكون تلك النظرية النقدية الكبرى، كما يقول جورج طرابيشي في مقدمة ترجمته لكتاب ماركوز (الإنسان ذو البعد الواحد)، وهذا لن يحصل من وجهة نظر طرابيشي «إذا لم تتمثل وتدمج بها كل أشكال النقد الموجهة إلى المجتمع القائم حتى وإن كانت منطلقات هذا النقد غير ماركسية. وإذا كفت الماركسية عن أن تكون تلك المحصلة النقدية الكبرى، فلن يكون لها من مآل غير المتحف أو كتب التاريخ».

فالمعبر بين ماركس الحالم وماركس العالم هو ماركس الناقد، وقد تنبه ماركس إلى هذه الحقيقة مبكراً، يوم كان شاباً يعمل في الصحافة (في بروسيا، ومن ثم في فرنسا) ويضيق ذرعاً بخواء وسطحية الحلقات الفكرية المحيطة به.. يقول في هذه المرحلة تحديداً (١٨٤٤) وهو يشجب موقف الاشتراكيين الذين كانوا يأنفون عن المشاركة السياسية والاهتمام بمسائلها؛ «ليس هناك ما يمنعنا من بدء نقدنا بنقد السياسة، وبالاشتراك في السياسة، أي في النضال الحقيقي. وبذلك يجب علينا أن نتجنب تقديم أنفسنا للعالم بصورة دوغماتية، وبمبدأ جديد يعلن: هذه هي الحقيقة، فلتنحنوا لها ولتعبدوها. علينا أن نطور للعالم مبادئ جديدة انطلاقاً من مبادئه القديمة. يجب علينا أن لا نقول للعالم: أوقف صراعاتك فهي حمقاء، وأصغ لنا فنحن نملك الحقيقة. بدلاً من ذلك يجب علينا أن نبين للعالم السبب في صراعاته، وهذا وعي يجب على العالم أن يصل إليه سواء أكان يحب ذلك أم لا». وقد سعى ماركس مثلما يقول فرانز مهرنغ إلى مساعدة العصر (عصره) على إدراك صراعاته ورغباته في ضوء (فلسفة نقدية). وفي سبيل هذا نذر حياته حتى مماته.

برغم ان "رأس المال" يعد مؤلفا اقتصاديا عادة، إلا ان انكباب كارل ماركس على دراسة الاقتصاد السياسي جاء لاحقا على قضائه لسنين طويلة في دراسة معمقة للفلسفة والادب. اذ لم ترتفع دعائم مشروع حياته ذاك الا على تلك الاسس الفكرية، فيما منحته تجربته في الاغتراب رصانة رفيعة في تحليل النظام الاقتصادي الذي حول البشر الى غرباء عن بعضهم البعض كما عن العالم الذي يعيشون فيه، العالم الذي تستعبد الانسان فيه السلطة المفرطة البشاعة والعديمة الروح لرأس المال والبضاعة. لقد كان ماركس نفسه مغتربا منذ لحظة ولادته في ٥ آيار/ مايو ١٨١٨ في مدينة تريير الكاثوليكية لكن المنتمية الى دولة بروسيا البروتستانتية الأنجيلية في مذهبها الرسمي. وبرغم ان منطقة الراين الحقت بفرنسا اثناء حروب نابليون، الا انها ضمت الى بروسيا الامبراطورية قبل ثلاث سنين من ولادته. فلا عجب ان يكون كارل ماركس الشاب قد اطال التفكير في مفهوم الأغتراب مبكرا.

الحمل الطويل

كارل ماركس

تأليف: فرانسيس وين

ترجمة: سعدي عبد اللطيف

اذ كتب في خاطرة مدرسية تعود الى السابعة عشرة من عمره: نحن لا نستطيع دوما بلوغ الموقف الذي نعتقد بوجوب ان نوصف به، وذلك لأن علاقاتنا مع المجتمع تبدأ بتأسيس نفسها، الى حد ما، قبل ان نصل الى المرحلة التي نتمكن فيها من تحديد شكل هذه العلاقات.

بدأ ماركس الاستغراق في القراءة منذ طفولته، فيما ساعد الالحاق السابق لمدينته بفرنسا في انتشار شغف فرنسي الميل نحو مجالات السياسة والدين والحياة والفن. أما التأثير الفكري الآخر الذي لعب دورا في حياة الصبي ماركس فقد جاء من معلمه الخاص البارون لودفيغ فون فستفالم الليبرالي الواسع الثقافة الذي درسه (مع ابنته جيني فون فستالم، زوجة كارل ماركس في ما بعد) الشعر والموسيقى. واثناء جولات المشي الطويلة، كان البارون ينشد مقاطع شعرية من هوميروس وشكسبير، سرعان ما حفظها رفيقه الفتى عن ظهر قلب، ليستخدمها لاحقا كتوابل اساسية في كتاباته. وسبق لماركس ان استعاد، في شبابه، ذكريات تلك الجولات الجميلة مع البارون حينما كان ينشد مشاهد شعرية من شكسبير او دانتي او غوته امام افراد عائلته وهم يتنزهون، أيام ألعطل، في حدائق هامستيد هيث الساحرة. وقد كتب البروفسور س. س. برور ان كل فرد من عائلة ماركس كان مضطرا للعيش في ظل اجواء مثيرة من اشارات متواصلة الى الأدب الانجليزي، اذ لكل مناسبة ثمة مقتبس ادبي: لمسح الارض بخصم سياسي، لإعادة الحياة الى نص متخشب، لضخ الدفء في نكتة، لبث المصداقية في الاحاسيس- او لبعث النبض في مفهوم تجريدي لاروح فيه، كما هو الحال (في المجلد الأول من "رأس المال") عندما جعل رأس المال يتكلم عبر صوت شايلوك (مسرحية "تاجر البندقية" لشكسبير) مبررا استغلال عمل الاطفال في المصانع.

فعندما احتج العمال ومفتشو المصانع عليه مستندين الى قيم اخلاقية وصحية، تصدى رأس المال مجيبا:

أنا وحدي المسؤول عن افعالي
اريد تطبيق القانون وتوقيع العقوبة
وتطبيق احكام العقد.

وللبرهنة على ان النقود تلعب دورا جذريا كرافعة، يورد ماركس مقتطفا من تيمون الأثيني (شكسبير): "النقود هي البغي المشتركة بين البشر" يليه مقتطف آخر من انتيغونا (سوفوكليس): "النقود! النقود هي لعنة الانسان، ليس هناك لعنة اكبر. النقود هي من يخرب المدن، من ينفي الرجال من اوطانهم، انها تغوي وتخدع الارواح الفائقة الصفاء، تدفع الناس الى طريق الخسة والعار...". كما شبه الأقتصاديين الذين يقدمون تحليلات تنطوي على مفارقات تاريخية بـ "دون كيشوت" الذي "انزل به القصاص لأنه تخيل خطأ بان ترحال الفرسان الهائمين على وجوههم يتناغم بشكل متساو مع كل الاشكال الاقتصادية للمجتمع".

ولعل طموحات ماركس كانت محض ادبية في البداية. فعندما كان طالبا للحقوق في جامعة برلين ألف ديوانا شعريا، ومسرحية شعرية وحتى رواية بعنوان "العقرب وفيلكس" كتبت على عجل في نوبة من نزوات الانتشاء اثر وقوعه تحت سحر الرواية الكوميدية المشهورة "تريستان شاندي" التي ألفها لورنس ستيرن. لكن ماركس اعترف بالهزيمة بعد هذه التجارب: "فجأة، كما لو انها لمسة سحرية- آه كانت اللمسة أول ضربة ساحقة – وقع نظري على المملكة النائية للشعر الحقيقي مثل قصر ناء لعبقر واستحالت مخلوقاتي الى لاشيء... اسدلت الستارة، واقدس اقداسي تحطم الى شظايا، وتوجب رفع آلهة جديدة".

> اتسم عمل ماركس في الصحافة باندفاعه الجريء مما يفسر سبب امضائه معظم حياته في المنفى والعزلة السياسية. فمقالته الاولى ذاتها احتوت على هجوم ساحق على كل من تعصب للنظام الاستبدادي للدولة

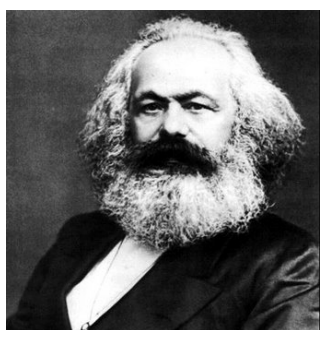

وبعد تعرضه الى مايشبه الانهيار العصبي، امره الطبيب ان يتوجه الى الريف للاخلاد الى فترة نقاهة طويلة، وهناك استسلم، في النهاية، الى الصوت الحميم لجورج فيلهلم فريدريك هيغل، استاذ الفلسفة في برلين الراحل للتو الى العالم الآخر، لكن الذي غدت مؤلفاته موضوعا لنقاشات ساخنة بين مريديه من الطلبة وكذلك اساتذتهم.

وهيغل كان في شبابه مثاليا ونصيرا متحمسا للثورة الفرنسية، بيد انه تحول، في كهولته، ليغدو رخي البال لينا ومؤمنا بان الانسان الناضج حقا يجب ان يسلم بـ "الضرورة الموضوعية لعالمنا ومعقوليته كما نجدها". فوفقا لهيغل "كل ما هو واقعي معقول"، ولذا فقد جادل انصار هيغل المحافظون بان الدولة البروسية مادامت واقعا فهي موجودة بهذا المعنى، من دون اي شك، وبالتالي فانها معقولة وفوق اي نقد. اما اولئك الذين ظلوا يؤمنون بمفاهيم هيغل المبكرة – ويطلق عليهم "الهيغليون الشباب" – وكانوا أكثر راديكالية بكثير، فانهم فضلوا الاستناد الى النصف الثاني من ذلك المفهوم الذي ينص على ان: "كل ما هو عقلاني واقعي". فنظام ملكي مطلق دعامته الاساسية مراقبو المطبوعات والشرطة السرية لايمثل العقلانية باي شكل صريح ولذلك فهذا النظام غير واقعي، انما مجرد سراب سيتلاشى حالما يجرؤ أحد على المسّ به.

وعن ايامه في الجامعة يقول ماركس: "عمدت في العادة على التقاط مقتطفات من جميع الكتب التي قرأتها". وهي عادة لم يتخل ماركس عنها مطلقا. وتظهر قائمة قراءاته في تلك الفترة مدى نضجه المبكر في حفرياته الفكرية. فحينما كان يكتب دراسة عن فلسفة القانون، قام بدراسة تفصيلية عن تاريخ الفن الذي ألفه وينكلمان، كما بدأ يعلم نفسه الانجليزية والايطالية، وترجم كتابي "جيرمانيا" لتاسيتوس و"الخطابة" لأرسطو، وقرأ مؤلفات الفيلسوف الانجليزي فرانسيس بيكون، وقال "قضيت وقتا طويلا ممتعا مع ريماروس" وانكب عقلي ببهجة على كتابه الذي يدور حول الغرائز الفنية للحيوانات". وهذا الاسلوب المتشعب المصادر، النهم القراءات، المهتم بتلمس كل جوانب الموضوع هو ذاته الذي استخدمه في بحثه حول رأس المال مانحا مجلداته اتساعا استثنائيا في مصادره.

وفي اطروحته لنيل الدكتوراه المعنونة "الاختلاف بين الفلسفتين الديموقريطسية والابيقورية" يبدو توصيف ماركس لديموقريطس وكأنه رسم لصورة ملفتة للنظر لذات ماركس نفسه: "كان شيشرون يطلق على ديمقريطس تسمية: ضليع في الفيزياء، وفي علم الاخلاق، والرياضيات، وفروع المعرفة الانسكلوبيدية وفي كل واحد من انواع الفنون".

وبدا الدكتور× كارل ماركس، لفترة من الزمن ، غير واثق من افضل السبل لاستخدام معرفته الموسوعية. فقد فكر، بعد حصوله على الدكتوراه، ان يعمل كمحاضر للفلسفة لكنه قرر، بعدئذ ، ان قربه زمانيا ومكانيا من اساتذة الجامعات امر لايمكن ان يطاق من يريد ان يفرض عليه ، دوما ، التحدث مع مخلوقات فكرية لافائدة فيها، اناس واظبوا على الدراسة، فقط ، من اجل التوصل الى غايات جديدة لاحياة فيها في كل زاوية من العالم !". اضافة الى ذلك، كانت افكار ماركس تتحول، منذ تخرجه من الجامعة، من المثالية باتجاه المادية، من المجرد الى الواقع. وكتب عام ١٨٤٢ مادامت كل فلسفة حقيقية ما هي الا خلاصة زمانها ، يجب ان ياتي زمان تصبح فيه الفلسفة ليس على اتصال مع العالم الواقعي ليومها فحسب، بل ومتفاعلة معه ، ليس فقط داخليا عبر مضمونها، بل خارجيا عبر شكلها أيضا." وبدأ ، في ذلك الربيع ، يكتب في صحيفة راينسش زيتنغ الليبرالية الجديدة التي تصدر في كولون، وبعد ستة اشهر فقط عين رئيسا للتحرير فيها.

× الدكتور لقب يحرص بعض البريطانيين اطلاقه على ماركس تحببا.

واتسم عمل ماركس في الصحافة باندفاعه الجريء مما يفسر سبب امضائه معظم حياته في المنفى والعزلة السياسية. فمقالته الاولى ذاتها احتوت على هجوم ساحق على كل من تعصب للنظام الاستبدادي للدولة البروسية من جهة وعلى خصومها الليبراليين البلهاء من جهة اخرى. كما انه لم يكتف بخلق اعداء له بين اوساط الحكومة والمعارضين لها معا، بل استدار على رفاقه انفسهم، شاجبا لدى الهيغليين الشباب "فظاظتهم وبذاءة لسانهم". وبعد شهرين فقط من تسنم ماركس لمسؤولية رئاسة تحرير الجريدة، أمر حاكم المقاطعة من مسؤولي رقابة المطبوعات في برلين بتقديمه للمحاكمة بسبب نقده الوقح والمهين"، فيما ناشد نيقولاي ، قيصر روسيا ، الملك البروسي الامر باغلاق الجريدة، بعد ان شن ماركس هجوما على القيصر وحكومته في مقالات ساخرة عنيفة. وهكذا صدر الامر باغلاق الجريدة في آذار/ مارس ١٨٤٣، حيث كان لماركس من العمر ٢٤ عاما عندما جند قلمه لاشاعة الفزع في التيجان الجاثمة على دول أوربا مثيرا سخط ملوكها. وعندما ادرك ماركس ان لا مستقبل له في بروسيا قبل دعوته للأنتقال الى فرنسا للعمل كرئيس تحرير مشارك لجريدة جديدة يصدرها المنفيون الالمان باسم دويتش – فرانزوسش جاهربوشر. لكن ماركس ارسل توضيحا واحدا فقط

: "عقدت خطوبتي و اتهيأ للزواج، ولن استطيع ولا يجب ولن اغادر المانيا من دون خطيبتي".!

تزوج كارل ماركس جيني فون فستفالن في حزيران/يونيو ١٨٤٣. واثناء بقية فصل الصيف، عندما كان ينتظر استدعاء الجريدة له الى باريس، تمتع بقضاء شهر عسل طويل مع زوجته في منتجع كرويزناخ. وحينما كان لايمضي وقته بالتمشي غرب النهر، كان يلزم غرفته يقرأ ويكتب بنهم شديد. فقد كان ماركس يحب كتابة افكاره التي يتوصل اليها على الورق. وتظهر صفحة بقيت من دفتر ملاحظاته آنذاك صيرورة عمله:

"ملاحظة. تحت حكم لويس السادس عشر، الدستور نعمة على الناس من الملك (وثيقة فرضها الملك)، وتحت حكم لويس فيليب ، الدستور نعمة من الناس على الملك (وثيقة تفرض الملكية). وعموما يمكننا ملاحظة ان تحويل المسند اليه الى مسند ، والمسند الى مسند اليه، وتبديل من يقرر الى ما يقرر، يمثل دوما ثورة قريبة جدا.... فالملك يضع القانون (الملكية القديمة) ، القانون يصنع الملك (الملكية الجديدة). بيد ان قلب القواعد البسيط هذا يكشف ايضا عن خلل في الفلسفة الالمانية. فقد افترض هيغل ان "فكرة الدولة" هي الفاعل والمفعول به هو المجتمع، في حين ان التاريخ اظهر ان العكس هو الصحيح. بيد ان قلب هيغل رأسا على عقب يحل بنجائجة المشكلة: فالدين لا يصنع الانسان بل الانسان يصنع الدين، والدستور لايخلق الشعب بل الشعب يخلق الدستور. وبرغم ان ماركس استلف الفكرة من لودفيغ فيورباخ ، الذي جادل في كتاب له ان الفكرة تنهض من الوجود ، وليس الوجود من الفكرة فان ماركس وسع منطقها من الفلسفة المجردة الى العالم المادي. وكما كتب في اطروحة حول فيورباخ نشرت عام ١٨٤٥ ، ان الفلسفات لم تقم حتى الآن إلا بتقديم تفسيرات للعالم والمطلوب الآن تغييره.. هنا، على شكل نطفة بعد، الاطروحة الاساسية لمجلدات "رأس المال". فالرأسمالية تظل، برغم النجاحات الاقتصادية الباهرة والواضحة، تلعب دورا كارثيا لأنها تحول الناس الى مجرد سلع قابلة للمقايظة بسلع اخرى. وحتى تلعب الانسانية دورها المؤكد في كونها فاعلا للتاريخ وليس مفعولا به ، فليس هناك مهرب من استبداد الرأسمالية.

كان اعضاء الهيئة الثلاثية المشرفة على جريدة "دويتش – فرانزوسش جاهربوشر"، وهم كارل ماركس، والصحافي آرنولد ريوج والشاعر جورج هيروغ، قد وصلوا الى باريس في خريف عام ١٨٤٣ واسسوا "تعاونية اشتراكية" أي كومونة في منطقة ريو فانيو، تلهمهم التعاليم الطوباوية للفيلسوف الاشتراكي الفرنسي شارل فورييه. وكانت حياة تجربة العيش في ظل الكومونة قصيرة الأمد مثل حياة الجريدة نفسها: بعد عدد واحد اختلف المحررون الثلاثة مع بعضهم وتفرقوا. بعد ذلك، قبل ماركس عرضا بالكتابة في جريدة "فورفاتس" الشيوعية النصف شهرية التي كان يصدرها المنفيون الالمان ، والتي عرض ماركس على صفحاتها لاول مرة قناعاته بان الوعي الطبقي يمثل بذور الاخصاب للثورة. اذ قال فيها ان

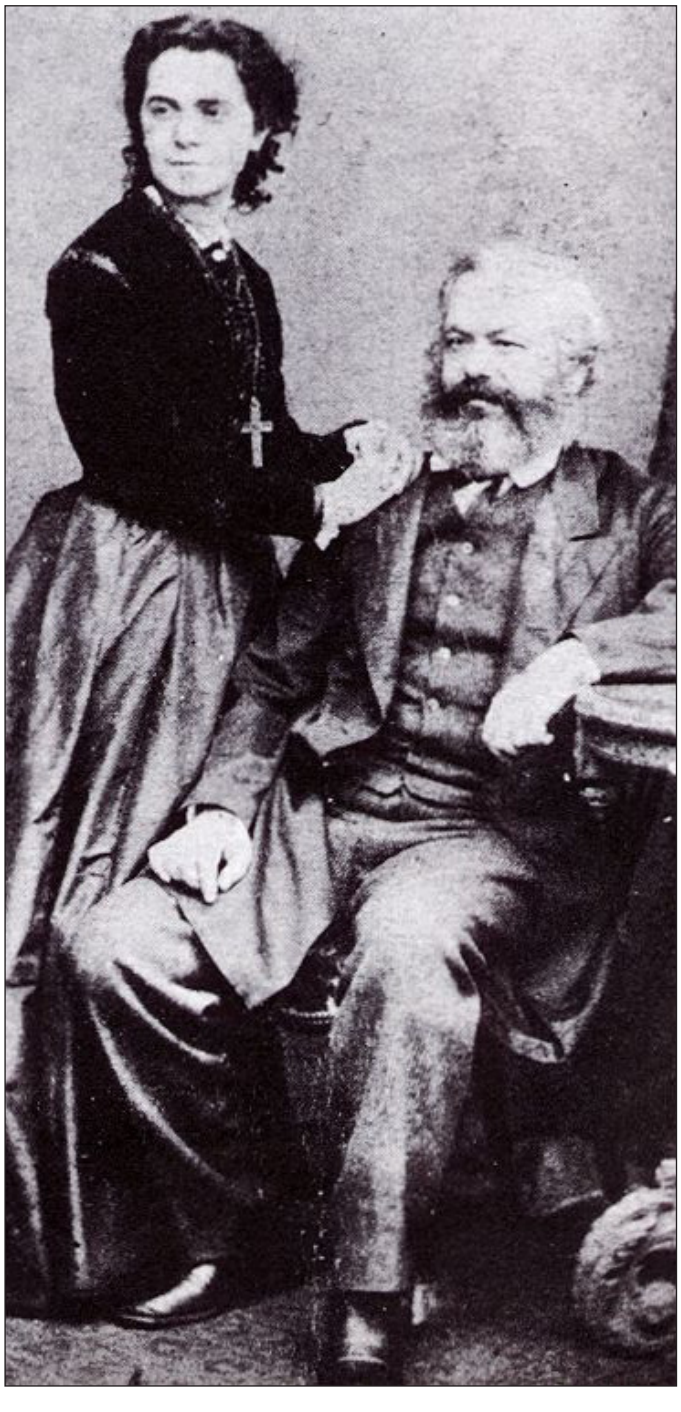

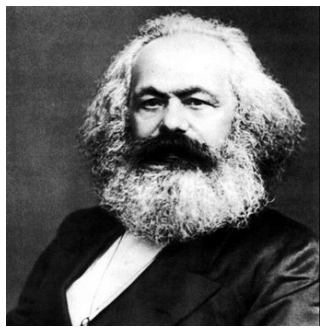

تبدأ اول مخطوطة بتأكيد مباشر: يحدد الاجور الصراع الضاري بين الراسمالي والعامل. ويكسب المعركة الراسمالي حتما. يستطيع الرأسمالي الاستمرار في الحياة مدة اطول من دون العامل ، لكن العامل لا يقدر على ذلك من دون الراسمالي.' واذا كان رأس المال لاشيئ غير الثمار المتراكمة لجهود العمال ، فاذن ، فان رؤوس اموال البلاد ودخلها لا تنمو الا عندما تستلب من العمال منتوجاتهم اكثر فاكثر

"البروليتاريا الالمانية تلعب دور المنظر للبروليتاريا الأوربية ، بالضبط كما تلعب البروليتاريا الانجليزية دورها الاقتصادي والبروليتاريا الفرنسية دورها السياسي". وذلك قبل ان يعلن أنجلز لاحقا ان الماركسية ذاتها هي مزيج من هذه الروافد الثلاثة.

وكان ماركس ، في هذه الفترة ، احكم القبض على زمام الفلسفة الالمانية وعلم السياسة الفرنسي ، وتوجب عليه بعدهما تثقيف نفسه بالاقتصاد البريطاني ، فبدأ يقرأ مؤلفات آدم سميث ، ديفيد ريكاردو وجيمس مل مدونا بعجالة تعليقاته النقدية على كل صفحة يمر عليها في مؤلفاتهم. هذه التعليقات النقدية ، التي جمعت في كتاب ونشرت تحت عنوان "مخطوطات باريس" تمثل المسودات الاولى لما غدت عليه لاحقا مجلدات راس المال.

وتبدأ اول مخطوطة بتأكيد مباشر: يحدد الاجور الصراع الضاري بين الراسمالي والعامل. ويكسب المعركة الراسمالي حتما. يستطيع الرأسمالي الاستمرار في الحياة مدة اطول من دون العامل ، لكن العامل لا يقدر على ذلك من دون الراسمالي.' واذا كان رأس المال لاشيئ غير الثمار المتراكمة لجهود العمال ، فاذن ، فان رؤوس اموال البلاد ودخلها لا تنمو الا عندما تستلب من العمال منتوجاتهم اكثر فاكثر ، وعندما يواجه العامل باضطراد عمله كملكية غريبة عنه وتتركز تصاعديا وسائل وجود العمال وجهودهم بايدي الراسمالي'. وحتى في اكثر الظروف الاقتصادية ملائمة ، فان مصير العامل سيواجه ، حتما ظروف كدح اشد ، وموتا مبكرا ، اختزاله الى آلة، وعبودية لرأس المال'. ويصبح عمله كائنا خارجيا يوجد خارجه ، مستقلا عنه وغريبا عليه ، ويبدأ بمواجهة العامل كسلطة ذات حكم ذاتي، والحياة التي نفخها العامل علي الشيئ يواجهه ككائن عدواني وغريب'. هذه الصورة استمدها من رواية " فرانكشتاين " (كتبتها ماري شيلي زوجة الشاعر الرومانطيقي الشهير شيلي) وهذه الرواية احد الكتب المحببة الى نفس ماركس ، وتحكي قصة رجل يخلق في مختبره وحشا ، فينقلب الوحش ضد خالقه. ورغم ان بعض الباحثين الكبار يدعون ان هناك قطيعة جذرية' بين فكر ماركس الشاب وماركس الراشد ، فان تحليلات ماركس وتعبيراتها المذهلة تشي بكل وضوح بان كاتبها هو ماركس نفسه الذي جادل في رأس المال ، بعد اكثر من ٢٠ سنة ، بان الوسائل التي تزيد الراسمالية بها الانتاج تتمثل بـ تحويل العامل الى شبح لأنسان ، تحط من انسانيته الى حد تحويله الى آلة ، تدمر المضمون الحقيقي لعمله بتحويل هذا العمل الى نوع من التعذيب ، وتدفعه الى الاغتراب عن الطاقات الفكرية الكامنة في صيرورة العمل.... تحول زمن حياته الى زمن للعمل ، وتجر زوجته واطفاله الى مطحنة الراسمالية الساحقة'.

في شهر آب/اغسطس ١٨٤٤ عندما كانت جيني زوجة ماركس تزور امها في المانيا ، جاء فردريك انجلز ، وكان عمره ٢٣ عاما لزيارة ماركس في باريس.

كان ماركس وانجلز قد التقيا ، سابقا ، بشكل سريع ، لمرة واحدة فقط ، في مكتب جريدة راينسش زيوتنغ ، وكان ماركس معجبا بشكل عميق بكتاب انجلز المعنون نقد الاقتصاد السياسي' والذي قدمه الى جريدة دويتش – فرانزوسش جاهربوشر. ويستطيع المرء القول لماذا : برغم ان ماركس يعتقد ، الآن ، بان القوى الاجتماعية والسياسية تحرك عجلة التاريخ ، لكن مايفتقده هو المعرفة المباشرة بالراسمالية في التطبيق. وكان أنجلز مؤهلا ان ينير له الطريق ، فهو ابن ووريث الماني لصناعي يملك مصانع للقطن في مانشستر – قلب الثورة الصناعية ومولد الرابطة المناهضة لقانون الحبوب (تقييد حرية تصدير واستيراد الحبوب الذي ادى الى حركات احتجاج واسعة النطاق اذ ادت الى ارتفاع كبير في اسعار الخبز) ، مدينة كبيرة تعج بالحركات التشارتية (منظمات انجليزية في القرن التاسع عشر هدفت الى تحسين اوضاع الطبقة العاملة من الناحيتين الاجتماعية والصناعية) ، انصار روبرت اوين (مصلح اجتماعي واشتراكي بريطاني) والنشطاء الاشتراكيون من كل الالوان. انتقل انجلز الى مقاطعة لانكشاير في خريف عام ١٨٤٢ ، ظاهريا ، لتعلم مهنة العائلة ، وفي الحقيقة ، قصد الاطلاع على العواقب الانسانية التي ادت اليها الراسمالية في ظل العهد الفيكتوري. وكان انجلز ، في النهار ، مديرا شابا ماهرا في بورصة القطن ، وبعد ساعات يغير وجهته، ويمضي وقته متحريا شوارع البروليتاريا واحياء الفقراء القذرة في المدينة لجمع مواد لرائعته المبكرة " وضع الطبقة العاملة في انجلترا (١٨٤٥).

وبرغم ان ماركس وانجلز قضيا سوية ١٠ ايام فقط في باريس ، الا ان الجرد الوحيد لنقاشاتهم الملحمية وردت على شكل جملة واحدة فقط كتبها انجلز بعد ٤٠ سنة : عندما زرت ماركس في باريس خريف عام ١٨٤٤ ، غدا واضحا اتفاقنا التام في جميع المجالات النظرية وبدأ عملنا المشترك منذ ذلك التاريخ.' لقد اكملا بعضهما بشكل تام – ماركس بثروة معلوماته ، وانجلز بخبرته بالثروة. كان ماركس يكتب ببطء ومعاناة ، وتتناثر على صفحات مخطوطاته كثرة من الاشياء المحذوفة بالحبر والتصحيحات ، بينما كانت مخطوطات انجلز مرتبة و انيقة وكانه حقا من رجال الاعمال. كان ماركس يعيش حالة من الفوضى والفقر المدقع معظم حياته ، فيما كان انجلز يتسلم راتبا ممتازا ويواصل انتاجا هائلا من الكتب والرسائل والمقالات الصحفية – ويجد ، في الوقت نفسه ، الوقت للتمتع بمستوى عال من الحياة البرجوازية – اذ كانت هناك حصن في اصطبلاته والكثير من النبيذ في قبوه. ومع ذلك ، برغم ايجابيات الحياة الواضحة لصالحه ، كان انجلز يعرف منذ البدء انه لن يكون ابدا الرفيق المهيمن في هذه الشراكة. وتقبل من دون اية شكوى اوغيرة ، بان واجبه يتمثل في ان يقدم الدعم الفكري والمادي الذي يجعل من حياة ماركس وعمله اقل عناء. وكتب يقول ، لا استطيع ، ببساطة ، ان افهم كيف يستطيع احد ان يحسد عبقريا ، فالعبقرية شيئ خاص جدا ، ونحن الذين لانملكها يجب ان نعرف ، منذ البدء ، انه حق لايمكن الحصول عليه، وعليه ان تكون حاسدا لعبقري فلا يعني ذلك الا انك ، بالتأكيد ، صغير العقل بشكل مرعب. "

لم تكن هناك بينهما اسرار او محرمات : المراسلات بينهما ماهي الا مزيج لاذع من التاريخ ونقد الآخرين اقتصاديات ملغزة ونكات تلاميذ المدارس. وادى انجلز دوره كراع بديل لماركس – يبعث له بالنقود ليقتات بها ، يهتم اكثر ما ينبغي بتفاصيل حياته الصحية ويحذره دائما بالا يهمل ابحاثه. ومن اوائل الرسائل المتبقية في شهر تشرين الثاني /نوفمبر ١٨٤٤، كان يحث فيها ماركس بالحاح، ودون تأخير ، بتحويل ملاحظاته السياسية والاقتصادية الى كتاب للنشر : اسع الى اطلاق المواد التي جمعتها الى العالم بسرعة. لقد أزف وقت ذلك ، و انت ادرى بذلك ، بحق السماء !'

وبدأ صبر انجلز ينفذ بعد ثلاثة شهور : حاول ان تكمل كتابك في الاقتصاد السياسي حتى لو كان الكثير فيه مما لايرضيك ،لايهم الامر حقا ، فالعقول قد نضجت ويجب ان نوجه ضربتنا مادام الحديد ساخنا... حاول ، لذلك ، ان تنهيه قبل شهر نيسان ، نظم امرك كما افعل ، ضع لنفسك موعدا اخيرا تكمل فيه الكتاب بلا ريب، وتأكد ان تدفعه الى الطبع سريعا.' الا ان كل هذا ماهو الا امل لايرتجى' اذ مرت ٢٠ سنة قبل ان يسلم المجلد الاول من رأس المال الى المطبعة.

وليس انجلز نفسه بريئ تماما من اللوم هنا. فبعد فترة قصيرة من لقائه بماركس في باريس ، اقترح انجلز التعاون معا في كتابة كراس قصير – لا يتعدى ال ٤٠ صفحة يتضمن نقدا للهيغليين الشباب الاكثر حماسا. وبعد ان اكمل نصيبه مسطرا ٢٠ صفحة في ايام معدودة ، لم تصب أنجلز الدهشة الا قليلا' عندما عرف بعد عدة شهور الى ان الكراسة انتفخت ، حينها ، الى ٣٠٠ صفحة. كان ماركس من نوع الكتاب الذي لا يستطيع مقاومة الاغراء، مفضلا قضاء متعة مباشرة في تسطير الكراسات والمقالات على الجهود الصامتة التي لا بهجة آنية فيها التي يتطلبها العمل في تحفته ، التي عنونت ، حينها ، مؤقتا ب نقد الاقتصاد والسياسة. وبرغم وعده بتسليم المخطوطة الاقتصادية الى الناشر الالماني كارل ليسكه عند حلول نهاية صيف ١٨٥٤، فانه وضع المخطوطة جانبا بعد ان كتب جدول المحتويات ليس الا. واوضح للناشر ليسكه ، الامر المهم جدا، كما يبدو لي، ان يسبق تطوري الايجابي تأليف تفنيد عنيف مثير للجدل ضد الفلسفة الالمانية والاشتراكية الالمانية حتى الوقت الحاضر.

برغم ان ماركس وانجلز قضيا سوية ١٠ ايام فقط في باريس ، الا ان الجرد الوحيد لنقاشاتهم الملحمية وردت على شكل جملة واحدة فقط كتبها انجلز بعد ٤٠ سنة : عندما زرت ماركس في باريس خريف عام ١٨٤٤

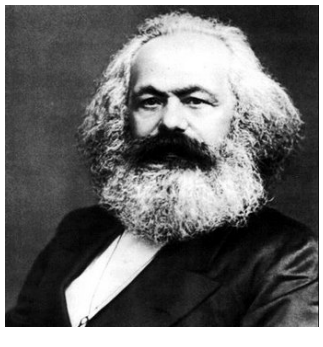

في مقال نادر للعلامة علي الوردي

هكذا قرأت كارل ماركس

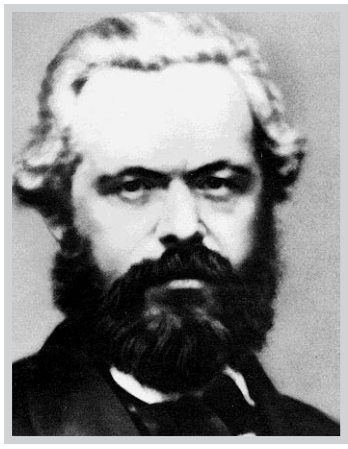

في قراءته للماركسية يتمسك الوردي بمنهجه الموضوعي فيكشف الايجابيات والسلبيات في هذه النظرية التي يصفها بأنها أهم المنعطفات في التاريخ البشري الحديث. ان النظرية الماركسية نظرية عظيمة بلاشك وقد احدثت في العالم تغييراً هائلا يندر ان نجد له نظيرا في تاريخ البشر، ولكنها مع ذلك لا يمكن ان تكون كاملة خالية من العيوب تماما. فهي ما دامت من صنع البشر فلا بد ان تكون معرضة للخطأ والنقص على وجه من الوجوه.

الماركسية تنظيراً هي غيرها تطبيقاً وصراع الطبقات حالة معلقة في الهواء

أتباع النظريات أساءوا دائماً لمعلميهم المؤسسين في مختلف الأزمان والأماكن

د . علي الوردي

يجب ان لا ننسي ان ماركس لم يأت بنظريته وحياً من السماء، بل هو استمدها من المعلومات التي توفرت لديه في حياته، ولهذا رأيناه يغير بعض الجوانب من نظريته مرة بعد مرة عند عثوره علي معلومات جديدة، ومن الممكن القول انه لو امتد به العمر فترة اطول، وعثر علي معلومات اخري، لربما كانت نظريته بغير الصورة التي تركها عند موته.

يعتقد بعض الماركسيين ولاسيما المتعصبين منهم ان النظرية الماركسية في اسسها كاملة خالدة، وهم ينسبون اليها صفة (العلمية) ويعتقدون انها مادامت كذلك فلابد ان تكون صحيحة تماما لا عيب فيها ولا يجوز ان يشك فيها احد. انهم ينسون ان العلم في تغير مستمر، وانه لا يزال في بداية الطريق، ولا ندري ماذا يخبئ المستقبل لنا من اعاجيب، وربما صار الذي نعده اليوم صحيحا غير صحيح غدا. الواقع أني أجد في الماركسية جوانب مشرقة تجذبني اليها، وقد اتيح لي ان ازور بعض البلاد الاشتراكية، كروسيا والصين وجيكوسلوفاكيا وبولونيا ، فلم املك نفسي من الاعجاب بما شاهدت فيها من مزايا قلما نجد لها مثيلا في البلاد الرأسمالية، واعترف اني عندما درست مؤخرا بعض معالم الاشتراكية في بولونيا هتفت من أعماق نفسي قائلا: هنا يكمن مستقبل العالم ! فاني لم اجد فيها تلك المناظر البشعة التي توجد عادة في البلاد الرأسمالية فليس فيها جموع العاطلين الذين لا يجدون عملا او الاف الفقراء الذين يسكنون في بيوت لا تليق بالبشر، او حشود الواقفين الصابرين الذين ينتظرون وسائل النقل تحت وطأة الحر والبرد، او المرضي الذين لا يجدون من يداويهم، او الاطفال الذين يعملون في الاعمال المضنية بدلا من دخول المدارس إلخ. ان الهدف الرئيسي للماركسية هو ازالة استغلال الانسان لأخيه الانسان، وتوجيه الانتاج العام نحو مصلحة السواد الاعظم من المواطنين. واشهد ان الماركسية سارت في الطريق الي هذا الهدف خطوات واسعة. ولكن مشكلة الماركسية انها لم تكتف بالسعي نحو هذا الهدف الاعظم، بل رأيناها تتدخل في امور هي في غنى عنها، حيث انكرت وجود الله، واستهانت بالاديان وحاولت تفسير التاريخ والمجتمع وطبيعة الانسان حسب خطة ثابتة لا يجوز الخروج عليها، وبذلك خلقت الماركسية لها اعداء كان من الممكن ان يكونوا اصدقاء لها.

عاش ماركس في جو فكري كان الاتجاه السائد فيه يميل الى تفسير جميع ما في الكون بنظرية واحدة حيث يشمل بها طبيعة الكون والانسان والتاريخ والمجتمع معا. وقد جرى علي ذلك الفيلسوف الكبير هيغل، ثم جاء ماركس من بعده فسار علي سنته. ومن الجدير بالذكر ان ماركس كان في بداية امره هيغلياً، وقد استمد اخيرا من هيغل نظريته في الديالكتيك غير انه جردها من نزعتها المثالية وجعلها مادية.

مشاهدات في البلدان الاشتراكية

قد يصح القول ان (الشمولية) في نظرية ماركس كانت من عناصر القوة لها في زمانها، اذ هي كانت تمثل التيار السائد انذاك. ولو لم تكن نظرية ماركس شمولية لما كتب لها النجاح والانتشار تجاه النظريات المنافسة لها. ولكن هذه الشمولية اصبحت فيما بعد من عناصر الضعف فيها، فان اتباع الماركسية وخاصة المتعصبين منهم جعلوها عقيدة كالعقائد الدينية، واعتبروها مفتاحا يفسرون بها كل شيء، ولا يكادون يرون احدا يخالفهم في رأي حتي يسرعون الى توجيه شتي التهم اليه، كالرجعية والغيبية والبرجوازية والامبريالية وما اشبه، وتلك تشبه تهمة (الكفر) و(الزندقة) لدى المتعصبين من اهل الاديان.

اني بعد مشاهدتي للبلاد الاشتراكية وقراءتي لكتابات الماركسيين توصلت الى نتيجة هي ان الماركسية في التطبيق تختلف اختلافا كبيرا عنها في التنظير. فالماركسية في التطبيق تدعو الى الاعجاب حقا ـ كما ذكرته آنفا ـ اما الماركسية في التنظير فهي تدعو الى التقزز احيانا لما فيها من نصوصية جامدة وقوالب فكرية تكرر مرة بعد مرة الى مالا نهاية له، كأنما المقصود بها هو التلقين والتحفيظ وليس التطلع الى حقائق جديدة. كثيرا ما سألت نفسي عن سبب هذا الفرق الكبير بين الماركسية في التطبيق والماركسية في التنظير. ويبدو لي ان قادة البلاد الاشتراكية مشغولون بمعالجة المشاكل العملية التي تواجههم دائما، وهم يسعون نحو حل تلك المشاكل بما ينفع الناس بغض النظر عما ورد في الكتب من نصوص جامدة. فانهم لو التزموا بالنصوص لفاتهم القطار، وهم مضطرون الي اتباع طريق التطوير والابداع لكي يتمكنوا من النجاح في خضم المعترك العالمي. اذكر في هذه المناسبة ما حصل للزعيم الماركسي المعروف لينين، فقد أراد هذا الرجل تحقيق مرحلة الاشتراكية في روسيا عقب ثورة اكتوبر عام ١٩١٧ فعرضه في ذلك الكثير من الماركسيين اذ اعتبروا عمله مخالفا للنص الماركسي الذي يقول بان الاشتراكية لا يمكن تحقيقها إلا في البلاد التي وصلت فيها الرأسمالية اقصى نموها، وقد اتهم هؤلاء لينين بانه محرف للماركسية او مارق عنها، فرد عليهم لينين حيث اخرج كتابه المشهور: مرض الطفولة اليساري في الشيوعية . انقل فيما يلي نبذة من الكتاب توضح موقف لينين من النصوصية الجامدة، حيث قال:

قال ماركس وانجلز ان نظريتنا ليست عقيدة جامدة، بل هي هادية للعمل، ان اعظم غلطة واعظم جريمة ارتكبها الماركسيون (من الماركة المسجلة) امثال كارل كاوتسكي واوتو باور، ومن في شاكلتهم، هو ان هؤلاء لم يفهموا هذا الامر ولم يستطيعوا تطبيقه في اللحظات الفاصلة من ثورة البروليتاريا..

ولقد دفع الثوريون الروس، من عهد تشيرنيسفيسكي ضحايا لا تحصى جزاء تجاهلهم او نسيانهم هذه الحقيقة، ينبغي ان نسعى باي ثمن كان لنمنع الشيوعيين اليساريين والثوريين في اوروبا الغربية وامريكا، ممن كرسوا انفسهم للطبقة العاملة من ان يدفعوا لاستيعاب هذه الحقيقة مثل الثمن الباهظ الذي دفعه الروس المتأخرون .

من المؤسف ان هذه الصرخة من لينين لم يستنفذ منها سويا القليل من الماركسيين فان الذين كانوا يلتزمون نصوص ماركس وانجلز من قبل جاء بعدهم اناس ساروا علي خطتهم غير انهم اضافوا الى النصوص الاولى نصوصا جديدة هي التي جاء بها لينين نفسه..

يمكن القول ان التنظير الماركسي في وضعه الحالي يحتوي علي صنفين من الاخطاء صنف وقع فيه مؤسسو الماركسية، اي ماركس وانجلز ولذين ومن في مستواهم، فهم ببشر كغيرهم من الناس يصيبون ويخطئون ونحن حين ننقد اخطاءهم لا يعني ذلك اننا أعظم منهم تفكيرا، فان المفكرين العظام قد يتورطون في اخطاء لا يمكن اكتشافها إلا بمرور الزمن.

حول العامل الاقتصادي

اما الصنف الثاني من الاخطاء فهو الذي يقع فيه اتباع الماركسية اذ هم يخالفون ما جاء به المؤسسون احيانا بينما هم يحسبون انهم سائرون في طريقهم. وهذا أمر لا ينحصر في اتباع الماركسية وحدهم، بل هو ظاهرة اجتماعية عامة نلاحظها لدى جميع الاتباع في كل زمان ومكان، وقد رأينا امثلة واضحة

عليها لدي المسلمين في عهودهم المتأخرة اذ هم يظنون انهم سائرون علي سنة النبي واصحابه بينما هم في حقيقة امرهم علي النقيض منهم في كثير من الامور.
سأحاول فيما يلي من هذا الملحق وفي الملاحق التالية مناقشة بعض الاخطاء الماركسية من كلا الصنفين حسب تصوري لها، او بمقدار فهمي لها ولست ادعي الصواب في ذلك، فربما كان فهمي لتلك الاخطاء مغلوطا - اي ان الخطأ ربما كان في ذهني وليس في النظرية الماركسية واني ارجو من المتفقهين في الماركسية ان ينوروني عنها.
يعزا الى ماركس فضل توجيه الفكر البشري لاول مرة في التاريخ الى اهمية العامل الاقتصادي في الحياة الاجتماعية، فقد كان المفكرون قبله لا يعيرون هذا العامل الاهمية التي يستحقها وجاء ماركس أخيراً فوجه الانظار اليه بشكل مركز شديد بحيث جعله المحور الاساسي في المجتمع والمحرك الاول للتاريخ.
ان هذا التركيز من ماركس على اهمية العامل الاقتصادي قد ادى لدى بعض الاتباع الي التطرف فيه كما هو شأن المتطرفين من الاتباع دائما، وقد لاحظ انجلز بوادر هذا التطرف لدى شبان الماركسيين في زمانه فاعلن انتقاده له وشجبه ان انجلز يعزو قسطا من مسؤولية هذا التطرف الى نفسه والى رفيقه ماركس حيث يقول ما نصه:
"ماركس وأنا نحمل جزئيا مسؤولية كون الشبان يعطون الجانب الاقتصادي وزنا اكبر مما يجب. ففي مواجهتنا لخصومنا كان علينا ان نؤكد المبدأ الاساسي الذي ينكرونه. وفي هذه الحال لم نجد دائما الوقت والموضع والظرف الذي يتيح لنا اعطاء العوامل الاخرى التي تشترك في الفعل المتبادل مكانها.."
وقد ذكر انجلز كيف ان العوامل الاخرى لها اهميتها التي لا تنكر في تفسير الاحداث كعامل الحروب والسياسة والدين والافكار وغيرها. وهو يقول في ذلك: "اذا ما قام احد بتشويه هذا الموقف بمعنى انه جعل العامل الاقتصادي العامل المقرر الوحيد فانه بذلك يحوله الى جملة فارغة مجردة حمقاء"
ويأتي انجلز بامثلة من تاريخ المانيا كظهور الدولة البروسية أو كيف تشكلت الامارات الصغيرة التي كانت قائمة في المانيا حينذاك. او كيف انقسم الالمان في لهجاتهم تبعا لمواقع سلاسل الجبال. فهذه أمور لا يمكن تفسيرها في رأي انجلز بالعامل الاقتصادي وحده. بل لابد من ان تكون هناك عوامل اخري تعمل عملها.

تطور المجتمع

خلاصة رأي ماركس في المجتمع البشري انه يقوم على اساس مادي اقتصادي. فالبشر حين يعملون في انتاج المواد الضرورية لحياتهم يدخلون في علاقات تنظم انتاجهم، وان مجموع هذه العلاقات يؤلف القاعدة التي يبني عليها المجتمع. ويقوم علي هذه القاعدة ما يسميه ماركس بـ (البناء الفوقي) وهو الذي يتكون من جميع مظاهر التراث الاجتماعي كالعادات والتقاليد والعقائد والقوانين وقواعد الاخلاق والفنون والفلسفة وما اشبه، ان البناء الفوقي يستمد جذوره من القاعدة التي يقوم عليها، وهو يتغير بتغيرها. وفي رأي ماركس ان التاريخ البشري هو نتاج الصراع بين الطبقات
ويفسر ماركس هذا الصراع بانه نتيجة التناقض الذي يحصل بين القوي المنتجة وعلاقات الانتاج، فالقوي المنتجة تتألف من البشر الذين يعملون في الانتاج مع ادواتهم، وهذه القوى تسير في سبيل التحسن والتطور بمرور الزمن، ولكن علاقات الانتاج لا تستطيع ان تماشي هذا التطور في القوى المنتجة، ومن هنا ينشأ التناقض بينهما حيث يظهر الصراع بين الطبقة المستغلة (بفتح الغين) والطبقة المستغلة (بكسر الغين) - مرة اخرى عبر التاريخ.
ويعتقد ماركس ان المجتمعات البشرية تمر في تاريخها بمراحل أو انظمة خمسة هي: المشاغبة البدائية، الرق، الاقطاع، الرأسمالية . الاشتراكية. فكل مرحلة من هذه المراحل تعد تقدمية بالنسبة الى المرحلة السابقة لها. وذلك لحصول الانسجام فيها بين القوي المنتجة وعلاقات الانتاج. ولكن هذا الانسجام لا يدوم الي الابد. ولابد ان يتضاءل بمرور الزمن ليحل محله التناقض. وبذا يبدا الصراع وتنشب الثورات التي تؤدي في نهاية المطاف الى قيام مرحلة جديدة.
سُميت هذه النظرية بـ (المادية التاريخية) وهي كانت في الواقع اعظم نظرية اجتماعية في حينها وقد لقيت رواجا كبيرا في اوساط المثقفين التقدميين في اوربا، واعتبرها انصارها صنوا لنظرية داروين تلك لعلم الاحياء وهذه لعلم الاجتماع. مشكلة هذه النظرية تكمن في اتباعها وليست فيها فقد اراد لها ماركس ان تكون مرشدة للعمل. ولكن اتباعها - او بعضهم على الاقل - جعلوها عقيدة ثابتة لا تقبل الشك او التغير.
لقد اصبحت فرضية المراحل الخمس التي جاء بها ماركس بمثابة (المسطرة) يلجأ اليها الاتباع كلما أرادوا دراسة مجتمع من المجتمعات او دراسة تاريخية، فليس عليهم سوى وضع تلك (المسطرة) علي المجتمع ليروا اية مرحلة هو فيها، ثم يبدأون بعدئذ بالبحث عن القرائن والادلة التي تؤيدهم في ذلك. ان هذا هو ما فعله كوتلوف في كتابه عن ثورة العشرين، فهو لكي يدرس تلك الثورة وجد من الضروري ان يضع (المسطرة) على المجتمع العراقي في زمن نشوب الثورة. وقد توصل كوتلوف الي نتيجة هي ان المجتمع العراقي كان حينذاك يعيش في مرحلة الاقطاع. ولهذا كانت ثورة العشرين في رأيه نتاج الصراع بين طبقة الجماهير الكادحة كالبدو والفلاحين والحرفيين من جهة، وطبقة الاسياد المستغلين لهم من الجهة الاخري. نحن لا ننكر اهمية الصراع الطبقي في تفسير احداث التاريخ، ولكننا مع ذلك لا يجوز ان نحشره في كل حادثة وفسر به كل شيء. فان المجتمعات تختلف بعضها عن بعض في نوع الصراع القائم فيها. كما ان الاحداث التي تقع فيها تختلف واحدة عن الاخرى في طبيعة الدافع الرئيسي لها،
خذ ثورة العشرين مثلا، فهي اذا كانت نتاج الصراع الطبقي على نحو ما قال به كوتلوف فمعني ذلك ان الصراع يجب ان يكون بين الشيوخ وأفراد عشائرهم باعتبار ان الافراد كانوا الاقنان الكادحين، وان الشيوخ كانوا المستغلين لهم، هذا ولكن الواقع الذي شهدناه كان علي النقيض من ذلك.

نشرت هذه المقالة كملحق للجزء السابع من كتاب لمحات اجتماعية وفيه يرد علي الوردي على المنهج المادي في كتاب التاريخ

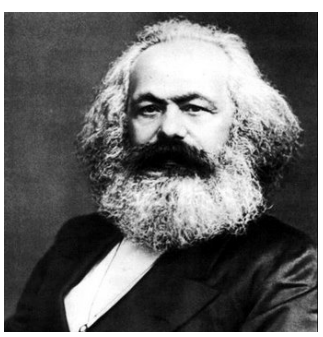

خطاب على قبر كارل ماركس

توفي ماركس يوم ١٤ مارس ١٨٨٣ . و بعد ثلاثة ايام القى انجلز هذا الخطاب باللغة الانجليزية على ضريح ماركس بمقبرة هايغايت بلندن حيث دفن هناك. تكلم انجلز بالانجليزية و ظهر الخطاب في صحيفة المانية في ترجمة المانية ثم نشر الخطاب بالانجليزية مترجما عن الالمانية.
في الرابع عشر من مارس و على الساعة الثالثة الا ربع ظهرا توقف اعظم مفكر عن التفكير. لقد ترك وحيدا لدقيقتين بالكاد و حينما عدنا و جدناه جالسا في كرسيه نائما في هدوء و لكن الى الابد.

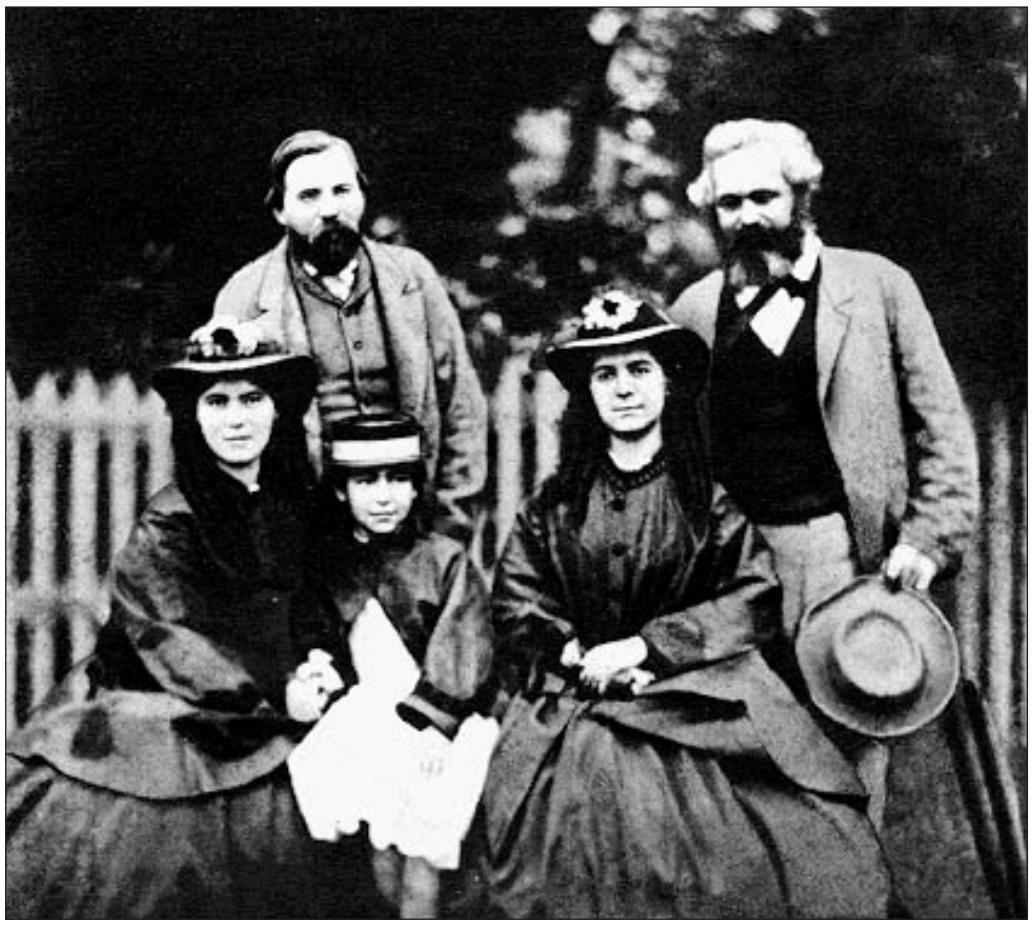

فريدريك انجلز

انها خسارة لا تقاس ضربت كلا من الطبقة العاملة المناضلة في اوروبا و امريكا و علم التاريخ بوفاة هذا الرجل. ان الثغرة التي نجمت عن رحيل هذه الروح العظيمة ستبرز بجلاء قريبا.
فمثلما اكتشف داروين قانون تطور الطبيعة العضوية اكتشف ماركس قانون تطور التاريخ البشري: الحقيقة البسيطة التي تخفيها هيمنة الايديولوجيا و هي ان الانسان يجب اولا ان ياكل و يشرب و يجد الماوى و الملبس قبل ان يصبح في استطاعته الاهتمام بالسياسة و العلم و الفن و الدين الخ... و بالتالي فان انتاج الوسائل المادية الضرورية للعيش و من ثمة درجة التطور الاقتصادي المحققة من طرف شعب ما او في حقبة ما تشكل الاساس الذي تقوم عليه مؤسسات الدولة و المفاهيم الشرعية و الفن و حتى الافكار حول الدين التي يختص بها هذا الشعب او ذاك و على ضوئها يجب ان تفسر و ليس العكس كما هو الحال.
و لكن ليس هذا كل ما في الامر. فقد اكتشف ماركس ايضا القانون الخاص بالحركة الذي يحكم نمط الانتاج الراسمالي لعصرنا و المجتمع البرجوازي الذي خلقه هذا النمط من الانتاج. ان اكتشاف فائض القيمة سلط الضوء فجاة على المشكلة محاولا حل ما عجزت عن حله جميع البحوثات السابقة من لدن الاقتصاديين البرجوازيين و كذلك النقاد الاشتراكيين.
ان هذين الاكتشافين لامر كاف في حياة شخص. و سيكون سعيدا ذاك الذي يتسنى له تحقيق ولو احد هذين الاكتشافين.
علاوة على ذلك فانه و في كل حقل بحث فيه ماركس – و لئن بحث في حقول عديدة و لم يكن ذلك بسطحية في اي منها - حتى في حقل الرياضيات قام ماركس باكتشافات مستقلة.
هكذا كان ماركس رجل علم. الا ان ذلك لم يكن يمثل ولو نصف هذا الرجل. لقد كان العلم بالنسبة لماركس حركية–دينامية– تاريخية و قوة ثورية. و مهما كان سروره عظيما باي اكتشاف جديد في العلوم النظرية و لئن كانت تطبيقاتها مستحيلة البلوغ فانه كان يعيش سرورا من نوع اخر حين يشمل الاكتشاف الجديد تغييرا ثوريا مباشرا في الصناعة و في التطور التاريخي عموما. فعلى سبيل المثال كان متابعا عن قرب لتطور الاكتشافات المحققة في مجال الكهرباء و اخرها تلك لمارسال دوبريMarcel Deprez.
كان ماركس قبل كل شيء ثوريا. و كانت مهمته الاولى في الحياة المساهمة بطريقة او باخرى في الاطاحة بالمجتمع الراسمالي و بمؤسسات الدولة التي جلبها معه و كذلك المساهمة في تحرير البروليتاريا الحديثة الذي كان اول من جعلها تعي بموقعها و حاجاتها و تعي بشروط تحررها. لقد كان الكفاح امرا اساسيا بالنسبة له فكافح بحب و عزم و نجاح لا ينافسه فيهم الا قليلون.
و كان عمله في الجريدة الرينانية الاولى–١٨٤٢– و في الى الامام الباريسية– ١٨٤٤×Vorwarts – و في جريدة البروكسالي– Brussler – الالمانية–١٨٤٧ – و في الرينانية الجديدة–١٨٤٨–١٨٤٩. و في التريبيون النيويوركية–New York Tribune–١٨٥٢–١٨٦١. و بالاضافة الى ذلك اشرافه على نشريات نضالية و عمله في منظمات في باريس و بروكسال و لندن و اخيرا توج كل ذلك بتكوينه جمعية الرجال العاملين العالمية. كان ذلك انجازا بامكان محققه ان يفخر به حتى و لو لم ينجز شيئا غيره.
و كنتيجة لذلك كان ماركس افضل المكروهين و اكثر المشهرين بهم في عصره فقامت حكومات مطلقة و جمهورية على حد السواء بترحيله عن اراضيها و تنافس البرجوازيون من المحافظين او من اقصى الديمقراطيين بالتشهير و الثلب لشخصه. لقد ازاحوا ماركس كما تزاح خيوط العنكبوت. لكن لم يعر ماركس اهتمامه بذلك و لم يرد الا عندما دعته الضرورة الى الرد. و مات محبوبا ممجدا و نعته الملايين من العمال الثوريين– من مناجم سيبيريا الى كاليفورنيا و في كافة انحاء اوروبا و امريكا.
و لمن المهم القول انه برغم خصومه العديدين فبالكاد ان كان له عدو شخصي واحد.
سيخلد اسمه على مر العصور و كذلك اعماله!

عن مختارات ماركس انجلز اصدار دار التقدم

يمكن القول ان التنظير الماركسي في وضعه الحالي يحتوي علي صنفين من الاخطاء صنف وقع فيه مؤسسو الماركسية، اي ماركس وانجلز ولنين ومن في مستواهم، فهم ببشر كغيرهم من الناس يصيبون ويخطئون

هناك فكرتان يتم تلقينهما لنا باستمرار منذ زمن: أولا، أن الأفكار العظيمة هي من إنتاج أشخاص عظام قاموا بإخراجها من أذهانهم؛ وثانيًا، أن الأفكار هي القوة الدافعة للتاريخ. التراث الماركسي يرى بالعكس: أن الأفكار لا تتواجد بمعزل عن الشروط التي يعيش فيها البشر أو عن الصراعات التي ينخرطون فيها. لذلك، فالأفكار التي طورت في فترات تاريخية مختلفة مرتبطة أساسًا بالحياة الاجتماعية والاقتصادية الحقيقية والعملية للبشر. فكما يقول ماركس: "ليس الوعي هو الذي يحدد الوجود، بل الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي".

كيف أصبح ماركسيا ؟

بقلم: سابي ساجال

ترجمة: مها يوسف

المشكلة في الادعاء بأن الأفكار هي التي تغير المجتمع هي أننا يمكننا أن نظل نتساءل: من أين تأتي هذه الأفكار؟ على سبيل المثال، الأفكار المسيطرة المتداولة اليوم هي أفكار تدافع عن المجتمع الرأسمالي. لكن لو كانت هذه هي القصة كلها، فكيف خرجت الأفكار الاشتراكية للوجود؟

لقد حددت الثورات الثلاثة العظيمة في أواخر القرن الثامن عشر شخصية المجتمع الحديث: الثورة الأمريكية ضد الحكم الاستعماري البريطاني، الثورة الفرنسية العظمى ضد الملكية المطلقة والإقطاع، والثورة الصناعية. لقد دمرت كل من الثورة الفرنسية والأمريكية النظام القديم، لكنهما انتهيا بظهور شكل جديد للسيطرة الطبقية وهو الرأسمالية الصناعية التي خلقت الثورة الصناعية أساسها المادي.

مارست الثورتان العظيمتان ضد النظام القديم تأثيرًا حاسما على الأفكار في وقتهما. وقتها أصبح التفكير في التاريخ يتم بطريقة جديدة أكثر حيوية بكثير. فلقد رأي الفيلسوف الألماني هيجل التاريخ مثل الحلبة التي تتصارع فيها قوى متعارضة مع بعضها البعض في بحث لا ينتهي عن الحرية. يتحرك التاريخ للأمام من خلال صراع الأضداد ثم من خلال هذه الأضداد على مستوى أعلى كيفيا. لكن بالنسبة هيجل بقيت هذه الأضداد محض نظرية.

ومع ذلك اشتركت رؤية هيجل مع رؤية ماركس في فكرتين: أن البشر يجب أن يناضلوا من أجل الحصول على الحرية، وأن المجتمع الحديث يتضمن عوائق تمنع التطور الكامل للقدرات البشرية الكامنة.

وقد استلهمت كلتا الفكرتان من الثورات العظيمة في أواخر القرن الثامن عشر.

طبقًا للنظرية الاقتصادية المسيطرة وقتها – الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الذي وضعه آدم سميث وديفيد ريكاردو – كان يجب أن يكون للمنافسة في السوق الحرة أعلى سلطان.

جادل سميث وريكاردو أيضًا بأن العمل هو مصدر كل ثروة، وهي الرؤية التي ناسبت احتياجات الرأسماليين الصناعيين الجدد. إذ شجعتهم ليحاولوا القضاء على القيود الباقية على حرية الحكرة للعمل التي تفرضها الدولة والطبقات القديمة من مالكي الأرض والتجار. في نفس الوقت، جادل ريكادرو بأن العمال يحصلون، في صورة أجور على القيمة الكاملة لوسائل إعاشتهم – الطعام، الملبس، المأوى – وأن قوى السوق ستمنعهم من الحصول على أكثر أو أقل من هذا.

وكان الاشتراكيون المثاليون من الطبقة الوسطى مثل روبرت أوين مسيطرين على النشاط السياسي للطبقة العاملة. أعتقد المثاليون أنه لتجاوز الفقر وعدم العدالة، فإنه من الضروري إقناع الأعضاء المستنيرين من الطبقة الحاكمة بإعادة تشكيل المجتمع طبقا لقواعد منطقية وعادلة. كانت نخبويتهم هي التي قادتهم لنبذ فكرة التحرر الذاتي للعمال.

في هذا الوقت كانت الطبقة العاملة لا تزال صغيرة جدًا؛ دورها الاجتماعي والاقتصادي غير منظور، ووعيها الطبقي جنيني جدًا إلى الدرجة التي تجعلها لا تستطيع ترك علامة حاسمة على نتيجة الصراعات الكبيرة في نهاية القرن الثامن عشر.

فبالرغم من أن الثورات الأمريكية والفرنسية أظهرتا أن الجماهير يمكن أن تعمل لتحويل مسار التاريخ، إلا أنهما أديا إلى صعود طبقة حاكمة رأسمالية جديدة وشكل جديد للاستغلال. ولهذا السبب لم يستطيع هيجل الارتفاع بتفسيره للتاريخ وصراعاته فوق مستوى مجرد. كان ما زال من الضروري ومن الممكن أن ترتدي العملية التاريخية رداء صوفي.

لنفس السبب، كان ماركس – كطالب شاب بين عامي ١٨٣٨ و١٨٤٣ – عضوا في مجموعة الهيجليين الشباب الديمقراطية الثورية التي كان هدفها الصراع السياسي للقضاء على الملكية الأوتوقراطية البروسية. لكن في ١٨٤٣ كتب مقالا أشار فيه للمرة الأولى إلى الطبقة العاملة بوصفها الوسيلة "لجعل الفلسفة أمرًا واقعًا" ولتحقيق "تحرير البشر الكامل".

وفي السنوات التالية جادل ماركس بصرامة ضد الهيجليين، قائلا بأن الأفكار المجردة ليست هي القوة الدافعة للتاريخ، بل إن البشر، منظمين في طبقات اجتماعية تصارع ضد بعضها البعض هم القوة الدافعة الحقيقية، وجادل أيضًا بأن الأفكار تنبع من الواقع المادي للمجتمع البشري.

أما ضد المثاليين والمصلحين فقد جادل بأن التاريخ لم يصنعه أشخاص عظام بل صنعته الجماهير.

ما الذي مكن ماركس من القيام بهذه القفزة؟ الذي مكنه هو أنه مع التصنيع السريع في أواخر عشرينات القرن التاسع عشر في إنجلترا وخاصة وإلى حد ما في فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة، أصبح من الممكن الحديث عن طبقة عاملة جديدة ذات درجة من الوعي الطبقي.

وما الذي خلق الوعي الطبقي الجديد؟ الذي خلقه أنه منذ أواخر القرن الثاني عشر، بدأ الرأسماليون في إجبار المزارعين المستأجرين الصغار المستقلين سابقا وحرفيي الطوائف على هجرة أراضيهم الصغيرة أو ورشهم ليعملوا بالأجر في المصانع الحضرية الجديدة. لقد كان أولئك عرضة لأبشع استغلال وقهر. إذا رفضوا أن يعملوا، كانوا يموتون جوعًا.

اشمئزاز الطبقة العاملة الجديدة من المصانع الحضرية الجديدة التي سيقوا إليها كالقطيع كان قويًا جدًا لدرجة أن القوانين سنت ضد التشرد لإبقاء العمال في المصانع. لكن أيضًا ومنذ البداية قاوم العمال. إذ تجمعوا في نقابات عمال، وواجهوا محاولات الحكومة الرأسمالية لتجريم نشاطهم عن طريق من قوانين النقابات في ١٧٩٩ و١٨٠٠. واستمرت النقابات رغم القوانين القاسية وأحكام السجن. إذ نظمت الطبقة العاملة الجديدة نفسها وردت الهجوم؛ من تمردات اللادية في ١٨١١ و١٨١٢ إلى مذبحة بيترلو في ١٨١٩ إلى تعميم النقابات في ١٨٣٠ – ١٨٣٤. هذه الهجمات المضادة أدت إلى ظفر العمال بمطلب إلغاء قوانين النقابات في عام ١٨٢٤.

بهذا اكتشف العمال قوة جديدة هي قوة وجودهم معًا في مكان يفرضه عليهم صاحب العمل الرأسمالي. لقد وحدتهم ونظمتهم نفس أدوات الإنتاج التي أجبرتهم على الطاعة. ففي ١٨٣١ و١٨٣٤ انتفض غازلو الحرير في ليون. بعدها بعشر سنوات في ١٨٤٤ ثار غازلو الكتان في سيليسيا ضد رؤسائهم الجدد.

تمرد العمال ضد قوة الرأسمالي. ناضلوا من أجل أجور أعلى، من أجل التفتيش على المصانع، من أجل شروط أفضل؛ ومن أجل وضع حد لساعات العمل. ثم استداروا ضد المشرعين الرأسماليين. في إنجلترا، منذ ١٨٣٧ – ١٨٤٨ ناضلوا من أجل حق الاقتراع العام خلال حركة الشارتية، وبعد ذلك ناضلوا من خلال نقابات العمال من أجل إقرار قانون العشر ساعات عمل.

لكن الطبقة العاملة ففي بداياتها الأولى مضت إلى أبعد من تحدي قوة الرأسماليين. من خبرتها الخاصة في التعاون أثناء الإنتاج وفي الصراع الجماعي أوجدت الإمكانية لبديل. في ١٨٣٣ كتب عامل بناء في يوركشاير بإنجلترا: "لن تضرب نقابات العمال فقط من أجل عمل أقل وأجور أعلى، ولكنها في النهاية ستقضي على نظام الأجور ليصبح العمال سادة أنفسهم وليعملوا من أجل بعضهم البعض". بدأت فكرة ديمقراطية العمال تقرر بالفعل. نفس عامل البناء استكمل مناديًا: "ببرلمان من الطبقات المنتجة أو بمجلس للفروع الصناعية المختلفة ينتخب مباشرة من الورش والمصانع فيرسل الناخبون ممثلين من المجالس المحلية إلى مجالس المناطق ومن مجالس المناطق إلى المجالس القومية. ومرتكزًا على الاقتراع العام والانتخابات السنوية سيستبدل مثل هذا الكيان البرلمان. "أيضًا نصت قواعد جمعية غازلي يوركشاير التي تكونت في ١٨٣٢ على الآتي: "خلقت الطبقات العاملة كلل الثروة لكن بدلا من كونها الأغنى فهي الأفقر في المجتمع". والبديل هو "الحياة في مجتمع على أسس التعاون المشترك والملكيات المتحدة".

في نفس الوقت، جاءت الرأسمالية الصناعية بأزمات. الأولى تفجرت في ١٨٢٥ والثانية في ١٨٣٧. كانت أفكار الاقتصاد السياسي الكلاسيكية تتلقى صدمات الأزمات من ناحية وصدمات انتفاضات العمال من ناحية أخرى.

لقد شككت ضمنها الصراعات الأولى من أجل أجور أعلى وظروف أفضل في المبدأ الرأسمالي: "أجر يوم عادل في مقابل يوم عمل عادل". كان العمال يتساءلون: "إذا كان العمل هو مصدر كل ثروة، لماذا يصبح العمال أفقر كلما أنتجوا أكثر؟" بمعنى آخر، كانوا يكشفون حقيقة الاستغلال المختفي تحت الرأسمالية والتي كانت تحاول الأفكار الكلاسيكية للاقتصاد السياسي إخفاؤه.

كانت أربعينات القرن التاسع عشر حقبة تعمقت فيها أزمة الرأسمالية الصناعية. فقد شهدت موجة صاعدة من الصراع الطبقي على جبهة أوروبية واسعة. وفي منفاه في فرنسا من ١٨٤٣ حتى ١٨٤٥ تاثر ماركس بشدة باتصاله مع عمال فرنسيين منظمين ومناضلين. وفي ١٨٤٤ قابل إنجلز الذي عاش في مانشستر ونقل له بؤس عمالها.

انتقد الفلاسفة الهيجليون في ألمانيا، والذين أثروا في ماركس الشاب، افتقاد الديمقراطية في الدولة البروسية النصف إقطاعية، لكنهم لم يشتبكوا مع انتفاضات عمال الغزل السيليسيين في ١٨٤٤.

ماركس، على النقيض، تأثر بشدة بالحركة الحية للعمال وكتب: "حكمة الفقراء الألمان تقف في تناسب عكسي مع حكمة ألمانيا البائسة. الانتفاضات السياسية بدأت من عند نفس النقطة التي انتهت عندها العصيانات الفرنسية والإنجليزية، وهي نقطة ظهور وعي البروليتاريا كطبقة".

خلال هذه السنوات العاصفة اكتشف ماركس أهمية الطبقة العاملة: أنها الحامل الممكن لنظام اشتراكي جديد، ليس فقط لأنها مقهورة ولكن لأن دورها في الإنتاج يجبرها على النضال بشكل جماعي.

لقد استطاع ماركس أيضًا تجاوز الاقتصاد الليبرالي. في قلب نظريته الاقتصادية الاشتراكية توجد فكرة أن النظام الرأسمالي يرتكز على استغلال العمال. لقد كان من السهل رؤية أنه في مجتمعات طبقية سابقة كان المنتجون مستغلين – على سبيل المثال، في ظل العبودية أو الإقطاع. لكن الاقتصاديون الكلاسيكيون ادعوا أنه في ظل الرأسمالية، كان العامل حرًا: هو أو هي يتفق على أجر مع صاحب العمل، ويمكنه أن يختار العمل أو عدم العمل عند هذا الرأسمالي أو ذاك.

ولكن بالتأكيد كان المجتمع الحديث مختلفًا – إذ كان مرتكزًا على التبادل الحر للعمل في مقابل الأجور، ولكن ماركس أثبت أنه في ظل الرأسمالية يتم استغلال العمال تمامًا مثلما كان يحدث في ظل العبودية أو الإقطاع. ولكن الفارق هو أنه بينما كان العبد مرتبطا بمالكه الفرد والقن بمالك الأرض والأرض فإن العامل في ظل الرأسمالي مرتبط ليس بالرأسمالي الفرد ولكن بالطبقة الرأسمالية ككل.

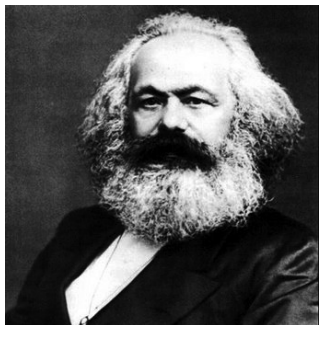

كانت نخبويتهم هي التي قادتهم لنبذ فكرة التحرر الذاتي للعمال. في هذا الوقت كانت الطبقة العاملة لا تزال صغيرة جدًا؛ دورها الاجتماعي والاقتصادي غير منظور، ووعيها الطبقي جنيني جدًا إلى الدرجة التي تجعلها لا تستطيع ترك علامة حاسمة على نتيجة الصراعات الكبيرة في نهاية القرن الثامن عشر. فبالرغم من أن الثورات الأمريكية والفرنسية أظهرتا أن الجماهير يمكن أن تعمل لتحويل مسار التاريخ، إلا أنهما أديا إلى صعود طبقة حاكمة رأسمالية جديدة وشكل جديد للاستغلال.

إن الرئيسي في مذهب ماركس، هو أنه أوضح دور البروليتاريا التاريخي العالمي، بوصفها بانية المجتمع الاشتراكي. فهل أكد مجرى الأحداث في العالم بأسره صحة هذا المذهب منذ أن عرضه ماركس؟

لقد صاغ ماركس هذا المذهب للمرة الأولى في عام ١٨٤٤، و«البيان الشيوعي»، الذي كتبه ماركس وانجلس، والذي صدر عام ١٨٤٨، يعطي عن هذا المذهب عرضا كاملا منهاجيا، هو خير عرض لهذا المذهب حتى اليوم. ومذ ذاك ينقسم التاريخ العالمي بوضوح إلى ثلاث مراحل رئيسية: ١) من ثورة ١٨٤٨ إلى كومونة باريس (١٨٧١)؛ ٢) من كومونة باريس إلى الثورة الروسية (١٩٠٥)؛ ٣) ابتداء من الثورة الروسية.

مصائر مذهب كارل ماركس التاريخية

بقلم: فلاديمير لينين

لنر إلى مصائر مذهب ماركس في كل من هذه المراحل.

١) في بداية المرحلة الأولى، كان مذهب ماركس أبعد من أن يكون المذهب السائد. فلم يكن سوى فرع أو تيار من فروع أو تيارات الاشتراكية، الكثيرة جدا. أما الأشكال التي كانت سائدة في الاشتراكية، فقد كانت الأشكال التي تتقارب، من حيث الجوهر، مع «الشعبية» عندنا: عدم فهم الأساس المادي للتطور التاريخي، العجز عن اكتناه دور وأهمية كل من طبقات المجتمع الرأسمالي، تمويه الطبيعة البرجوازية للتحولات الديموقراطية بمختلف التعابير الاشتراكية المزيفة حول «الشعب»، و«العدالة»، و«الحق» الخ..

وقد جاءت ثورة ١٨٤٨ تسدد ضربة قاتلة لجميع هذه الأشكال الصاخبة، المبرقشة، اللاغطة، لاشتراكية ما قبل ماركس. ففي جميع البلدان، أظهرت الثورة مختلف طبقات المجتمع قيد النشاط والعمل. وجاءت مذبحة العمال من جانب البرجوازية الجمهورية في أيام حزيران (يونيو) ١٨٤٨، بباريس، تحدد نهائيا الطبيعة الاشتراكية للبروليتاريا وللبروليتاريا وحدها. فإن البرجوازية الليبرالية قد خشيت استقلال هذه الطبقة أكثر مما خشيت الرجعية أيا كانت بمئة مرة. وقد زحفت الليبرالية الجبانة أمام هذه الرجعية. واكتفى الفلاحون بإلغاء بقايا الإقطاعية وانتقلوا إلى جانب النظام؛ ونادرا ما ترجرجوا بين الديموقراطية العمالية وبين الليبرالية البرجوازية. وتكشفت جميع المذاهب التي تقول باشتراكية لاطبقية، وبسياسة لاطبقية، عن ثرثرة باطلة.

وكانت كومونة باريس (١٩٧١) خاتمة هذا التطور من التحولات البرجوازية. وفقط لبطولة البروليتاريا، تدين الجمهورية برسوخها، أي هذا الشكل من تنظيم الدولة، التي تتجلى فيه العلاقات بين الطبقات بأقل المظاهر تمويها.

وفي جميع البلدان الأوروبية الأخرى كان التطور أشد غموضا وأقل اكتمالا، إلا أنه أدى إلى نشوء مجتمع برجوازي كامل التطور نفسه. وفي أواخر المرحلة الأولى (١٨٤٨ – ١٨٧١)، مرحلة العواصف والثورات، ماتت اشتراكية ما قبل ماركس؛ وولد حزبان بروليتاريان مستقلان: الأممية الأولى (١٨٦٤ – ١٨٧٢) والاشتراكية–الديموقراطية الألمانية.

٢) تمتاز المرحلة الثانية (١٨٧٢ – ١٩٠٤) عن المرحلة الأولى بطابعها «السلمي»، بانعدام الثورات. فقد انتهى الغرب من الثورات البرجوازية، ولما ينضج الشرق لهذه الثورات.

ودخل الغرب في مرحلة التحضير «السلمي» لعهد التحويلات المقبلة: ففي كل مكان تشكلت أحزاب اشتراكية، أساسها بروليتاري، أخذت تتعلم استخدام البرلمانية البرجوازية، وإصدار صحافتها اليومية، وإنشاء مؤسساتها التثقيفية، ونقاباتها، وتعاونياتها. وأحرز مذهب ماركس انتصارا كاملا وأخذ يمتد ويتسع. وببطء، ولكن برسوخ، تطور انتقاء وحشد قوى البروليتاريا، وإعدادها للمعارك المقبلة.

إن ديالكتيك التاريخ يرتدي شكلا يجبر معه انتصار الماركسية في حقل النظرية أعداء الماركسية على التقنع بقناع الماركسية. وقد حاولت الليبرالية، المهترئة في داخلها، أن تستأنف نشاطها تحت ستار الانتهازية الاشتراكية. وقد فسروا مرحلة إعداد القوى للمعارك الكبيرة بأنها عدول عن هذه المعارك. وكانوا يقولون أن تحسين أوضاع العبيد بغية النضال ضد العبودية المأجورة ينبغي أن يجري بطريقة يتنازل فيها العبيد عن حقوقهم في الحرية لقاء فلس واحد. وكانوا يدعون بجبن إلى «السلام الاجتماعي» (أي إلى السلام مع العبودية)، والى الإقلاع عن النضال الطبقي، الخ.. وكان لهم أنصار عديدون جدا بين البرلمانيين الاشتراكيين وبين مختلف الموظفين في الحركة العمالية وبين المثقفين «المحبذين».

٣) وكان الانتهازيون لما ينتهوا من تمجيد «السلام الاجتماعي» وإمكانية اجتناب العواصف في ظل «الديموقراطية» حتى تفجر في آسيا ينبوع جديد من العواصف العالمية الكبيرة. فبعد الثورة الروسية، قامت الثورة التركية، والإيرانية، والصينية. وإننا لنعيش اليوم بالضبط في عصر هذه العواصف و«تأثيرها بالاتجاه المعاكس» في أوروبا. وأيا كان مصير الجمهورية الصينية العظيمة، التي تستثير اليوم لعاب شتى أضراب الضباع «المتمدنة»، فما من قوة في العالم تستطيع أن تعيد الإقطاعية القديمة في آسيا، ولا أن تكنس من على سطح الأرض النزعة الديموقراطية الباسلة لدى الجماهير الشعبية في البلدان الآسيوية وشبه الآسيوية.

إن المماطلات الطويلة لخوض نضال حاسم ضد الرأسمالية في أوروبا قد دفعت إلى أحضان اليأس والفوضوية بعض الناس الذين قليلا ما يهتمون بشروط تحضير النضال الجماهيري وبشروط تطويره. وإننا لنرى الآن إلى أي حد من صغر النفس وقصر النظر يبلغ هذا اليأس وهذه الفوضوية.

إن ما ينبغي أن نستمده من كون آسيا التي تعد ثمانمئة مليون إنسان قد انجذبت إلى غمرة النضال في سبيل نفس المثل العليا الأوروبية، ليس اليأس، بل الشجاعة.

إن الثورات الآسيوية قد بينت لنا نفس ما تتصف به الليبرالية من ميوعة وخساسة، نفس الدور الاستثنائي الذي يضطلع به استقلال الجماهير الديموقراطية، نفس التمايز الدقيق بين البروليتاريا وبين البرجوازية من كل شاكلة وطراز. إن من يتحدث، بعد تجربة أوروبا وآسيا، عن سياسة لاطبقية وعن اشتراكية لاطبقية، إنما لا يستحق غير وضعه في قفص وعرضه إلى جانب كنغر أوسترالي.

وعلى اثر آسيا، أخذت أوروبا تتحرك ولكن على غير الطريقة الآسيوية. لقد ولت إلى الأبد المرحلة «السلمية»، مرحلة ١٨٧٢ – ١٩٠٤؛ فإن الغلاء ووطأة التروستات يؤديان إلى تفاقم النضال الاقتصادي تفاقما لا سابق له، تفاقم هز العمال الإنجليز بالذات، الذين أفسدتهم الليبرالية أكثر من سائر العمال. وأمام أنظارنا، تنضج أزمة سياسية حتى في أكثر بلدان البرجوازية واليونكر]] اليونكر، طبقة من كبار ملاكي الأراضي النبلاء في روسيا. (الناشر)[[«عصمة»، أي في ألمانيا. إن جنون التسلح والسياسة الإمبريالية يجعلان من أوروبا الحالية «سلاما اجتماعيا» يشبه بالأحرى برميلا من البارود. ناهيك بأن تفسخ جميع الأحزاب البرجوازية ونضوج البروليتاريا ما ينفكان في اطراد دائم.

منذ ظهور الماركسية، جاءت لها كل من المراحل الكبيرة الثلاث من التاريخ العالمي بتأكيدات وبانتصارات جديدة. ولكن المرحلة التاريخية المقبلة ستحمل للماركسية، بوصفها مذهب البروليتاريا، انتصارا أروع أيضا.

إن الثورات الآسيوية قد بينت لنا نفس ما تتصف به الليبرالية من ميوعة وخساسة، نفس الدور الاستثنائي الذي يضطلع به استقلال الجماهير الديموقراطية، نفس التمايز الدقيق بين البروليتاريا وبين البرجوازية من كل شاكلة وطراز

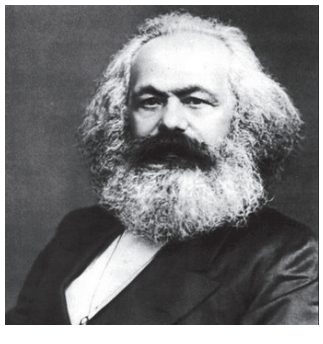

نشر هذا الخطاب في صحيفة «البرافدا»، العدد ٥٠، ١ آذار (مارس) ١٩١٣ عن مختارات لينين اصدار دار التقدم

مقابلة مع كارل ماركس

وهو يعيش في منفاه السياسي في انكلترا بسبب نشاطاته الثورية، اصبح الفيلسوف السياسي الالماني كارل ماركس واحداً من القادة البارزين لرابطة العمال الاممية. لقد صورت تقارير الصحافة والرأي العام في ذلك الوقت ماركس على انه متآمر شنيع، وصورت الرابطة الاممية على انها منظمة ماكرة تتآمر بالسر من اجل العصيان المسلح، على الضد من ذلك يقول مراسل "نيويورك وورلد" (ر.لاندر) في هذه المقابلة عن كومونة باريس عام ١٨٧١ إن الانتفاضة الشعبية تطورت الى نهاية دموية سريعة ومبكرة في تلك السنة..

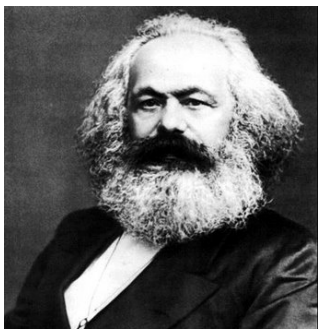

لقد اقنعت نفسي بشيء واحد، هو ان هذا مجتمع العمال العباقرة، غير ان هؤلاء العمال تتم قيادتهم من قبل منظرين اجتماعيين وسياسيين من طبقة اخرى، الرجل الذي رأيته هو عضو قيادي من اعضاء الجمعية، يتوقف عن الكلام معي بين فترة واخرى لتلقى تذمرا غير مهذب من أحد السادة الصغار العديدين في الجوار من الذين يستخدمونه، لقد سمعت الرجل نفسه وهو يلقي الخطب البليغة على الملأ

لقد طلبتم مني ان اكشف شيئاً عن الرابطة الاممية وها اني احاول القيام بذلك، انها لمغامرة شاقة حاليا، فمدينة لندن هي بلا منازع المركز الرئيسي للرابطة، لكن الناس في انكلترا يتملكهم ذعر عام ويشمون رائحة الاممية قد تعاظمت بشكل طبيعي مع تعاظم الشكوك لدى العوام. لو كان للرجال الذين يقودونها اسرار، فانهم من ذلك الطراز الذي يجيد حفظ الاسرار، لقد فهمت ذلك بزيارة اثنين من قياديهم وتحدثت مع احدهما بصراحة. واقدم لكم هنا مادة حديثي..

لقد اقنعت نفسي بشيء واحد، هو ان هذا مجتمع العمال العباقرة، غير ان هؤلاء العمال تتم قيادتهم من قبل منظرين اجتماعيين وسياسيين من طبقة اخرى، الرجل الذي رأيته هو عضو قيادي من اعضاء الجمعية، يتوقف عن الكلام معي بين فترة واخرى لتلقى تذمرا غير مهذب من أحد السادة الصغار العديدين في الجوار من الذين يستخدمونه، لقد سمعت الرجل نفسه وهو يلقي الخطب البليغة على الملأ، كل منها ملتهبة بقوة الحقد تجاه الطبقات التي سلطت نفسها حاكمة عليه، لقد ادركت معاني تلك الخطب بعد ان القيت هذه النظرة الخاطفة على الحياة المنزلية لخطيب لابد انه قد ادرك انه يمتلك ما يكفي من الذكاء لتنظيم حكومة عمالية رغم انه ملزم بتكريس حياته لمهنة ميكانيكية ذات مهام مقرفة للغاية. كان رجلاً شديد الاعتداد بنفسه وكان متحمساً، مع ذلك كان عليه في كل التفاتة ان يرد بانحناءة على صوت قبيح، أو بابتسامة يرد على أمر يرقى في مستوى كياسته الى مستوى مناداة الصياد على كلبه. لقد اعانني الرجل على القاء نظرة على جانب من جوانب طبيعة الاممية، ثورة العمل على رأس المال، ثورة العامل المنتج ضد الرأسمالي الذي يتمتع بما ينتجه، هنا كانت اليد التي ستضرب بشدة حينما يأتي الوقت المناسب، وفيما يتعلق بالرأس الذي يخطط، اعتقد اني قد رأيت ذلك ايضاً في مقابلتي مع الدكتور كارل ماركس.. فهو رجل ألماني يحمل شهادة الدكتواره في الفلسفة ويمتلك معرفة واسعة مستمدة من ملاحظة العالم الحي ومن الكتب ايضاً، ويتعين عليّ الاستنتاج بانه لم يسبق له وان كان من العمال بالمعنى البسيط للعبارة. فبيئته ومظهره هما بيئة ومظهر رجل مرفّه من الطبقة الوسطى، وقد شكلت صالة الاستقبال التي ادخلت اليها لاجراء مقابلتي هذه مكاناً مريحاً يليق برجل يعمل سمسارا ناجحا للاسهم المالية حقق مستوى الكفاية ويباشر الآن في بناء ثروته، ويمتلك ذوقاً ووسائل ميسورة. فهي شقة تجسد الراحة لكنها لا تحتوي على ما يشير الى السمات المميزة لمالكها، ثمة مجموعة من الصور الجميلة تمثل مشاهد لنهر الراين وهي توحي بجنسيته على أية حال. لقد اختلست النظر بحذر الى مزهرية موضوعة على طاولة وتراجعت الى مقعدي ورحت انتظر الاسوأ بكآبة. دخل ورحب بي بحرارة، ونحن الان نجلس وجهاً لوجه، اجل انا الآن اجلس في مواجهة الثورة المجسدة، مع المؤسس الحقيقي والروح المهللة للرابطة الأممية، مع واضع الخطاب الذي يُبلغ رأس المال بانه إن اشعل حربه ضد العمل فيتعين عليه ان يتوقع احتراق بيته وانهياره على رأسه هو. باختصار انا اجلس الان في مواجهة المدافع الاول عن كومونة باريس. هل تتذكر التمثال النصفي لسقراط، الرجل الذي فضل الموت على الاقرار بالإيمان بآلهة ذلك العصر؟ الرجل صاحب تلك الصورة الجانبية الجميلة وتلك الحركة المائلة التي تتجه عن جبهته الى الأسفل نحو الأنف الأفطس؟ ضع ذلك التمثال النصفي في خيالك ولوّن الذقن باللون الاسود ورشها هنا وهناك بنفثات من اللون الرصاصي، ورتب وضع الرأس بطريقة تناسب جسداً بدينا ذا طول متوسط، عندها ستجد الدكتور امامك، ضع حجاباً على الجزء الاعلى من الوجه ستجد نفسك مع رجل كنيسة بالفطرة، اكتشف السمة الجوهرية، الحاجب الضخم، وستعرف في الحال ان عليك التعامل مع اقوى مزيج بين الحالم الذي يفكر، والمفكر الذي يحلم.

لقد رافق الدكتور ماركس أحد السادة، وهو ألماني ايضاً وانا على رغم من معرفته الكبيرة بلغتنا الانكليزية غير متأكد من ذلك، فلعله كان شاهدا لصالح الدكتور؟ اظن مجلس الرابطة الذي سمع عن هذه المقابلة لابد ان يطلب من الدكتور ان يرفع تقريرا حولها، فأن "الثورة" لديها شكوك في ممثليها. هنا يتوفر للدكتور شاهد اضافي لتعزيز كلامه. لأمضي قدماً في مهمتي، فالناس كما قلت يجهلون كل شيء عن "الرابطة الاممية".

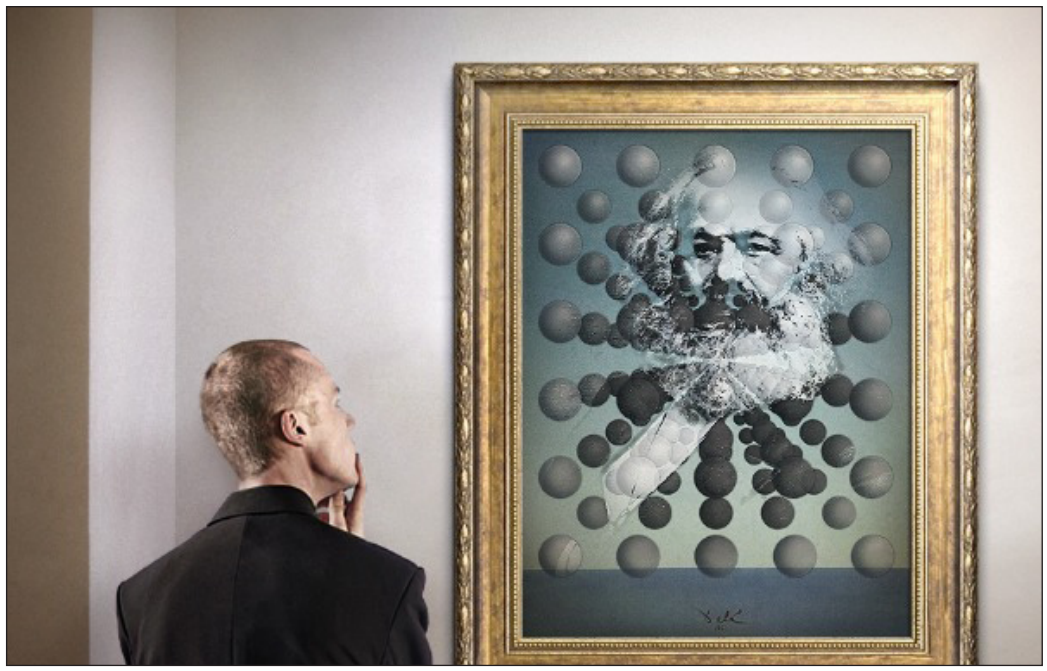

فهو يكرهونها كثيراً، غير انهم لا يستطيعون توضيح الشيء الذي يكرهونه فيها. بعض من يدعي الرؤية في الظلام، يزعم بانه قد شاهد ما يشبه صور الآلهة يانوس تظهر فيها ابتسامة العمال الجميلة الصادقة في احد وجوهها، وفي وجه آخر تظهر تقطيبة القاتل المتآمر. فهل يستطيع الدكتور اضاءة الغموض الذي إكتنف النظرية؟ ضحك البروفيسور، ثم خيل لي انه كان يضحك بهدوء حول فكرة اننا نشعر بالرعب منه فقال "ليس هناك غموض يتطلب التوضيح، سيدي" بدأ هكذا بلهجة مصقولة تماماً جداً، وأضاف "ربما باستثناء الغموض الذي يكتنف الغباء البشري لدى اولئك الذين يتجاهلون بشكل دائم حقيقة ان رابطتنا هي رابطة شعبية وان كل تقاريرها ميسورة لجميع اولئك الذين يهمهم قراءتها، فأنت قد تشتري قوانيننا لقاء(بنس) واحد، وقد تدفع (شلن) فقط على كتيبات تزودك بمعلومات عنا بمقدار ما نعرفه نحن تقريباً..

×ر. لاندر: تقريباً..اجل قد يكون الامر هكذا، هل في الاشياء التي سوف اطلع عليها التحفظ الاكثر اهمية؟. لكي اكون صريحاً تماماً معكم ولاضع الامر كما يضعه المراقب الخارجي، فان دعوى الانتقاص منكم بعامتها لابد وان تعني شيئاً اكبر من مجرد الرغبة في تجاهلكم من قبل العامة، ولا يزال ثمة سؤال وثيق الصلة بالموضوع حتى بعدما اخبرتني به، ما هي الرابطة الاممية؟

-ماركس: عليك فقط ان تنظر الى الاشخاص الذين تتكون منهم هذه الرابطة، العمال.

×ر. لاندر: اجل، لكن الجندي لا يحتاج الى من يوجهه في حرفته كي يدفعه للحركة، وأنا اعرف بعض اعضائكم واستطيع الجزم بأنهم ليسوا من طينة المتآمرين، اضافة الى ذلك ان السر الذي يشترك فيه مليون انسان لا يعود سراً اطلاقاً، ولكن ماذا لو كان هؤلاء مجرد أدوات في يدي رجل جسور، وآمل ان تعذرني اذا اضفت عبارة: بعد اجتماع سري مريب جدا.

-ماركس: ليس هناك ما يثبت ذلك..

×لاندر: والعصيان المسلح في باريس

- ماركس: انا اطالب أولاً بالدليل الذي يثبت وجود أي مؤامرة أو يثبت ان كل ما حصل لم يكن سوى نتيجة مفهومة لظروف الواقع الراهن، اما اذا افترضنا وجود المؤامرة فاني اطالب بدليل عن تورط الرابطة الاممية فيها..

×لاندر: وجود العديد من اعضاء الرابطة في هيئة الكومونة ألا يكفي؟

-ماركس: اذن فهي مؤامرة ساهم فيها اعضاء المحفل الماسوني ايضاً، فمشاركتهم في العمل كافراد لم تكن مشاركة سطحية اطلاقا ولاينبغي أن يدهشني حقاً اذا إتهمهم البابا بإثارة العصيان بأكمله استنادا الى تقريرهم (كانت الكنيسة الكاثولوكية مناهضة للمحفل الماسوني). ولكن حاول ايجاد تفسير اخر، ان العصيان المسلح في باريس قد صنعه عمال باريس، وبالتالي فان العمال الاكثر قدرة لابد وان يكونوا هم قادته وكوادره الادارية بالضرورة، لكن حدث وان كان هؤلاء العمال المقتدرون هم ايضاً اعضاء في الرابطة الاممية، ومع ذلك فأن الرابطة لا يمكن ان تكون مسؤولة عن هذا العمل بأي حال..

××لاندر: مع ذلك فالامر يبدو على عكس هذه الصورة أمام الناس، يتحدثون عن تعليمات سرية صادرة عن لندن بل وحتى تبرعات مالية، هل يمكن الجزم بان العلنية المزعومة لاعمال الرابطة تستبعد الاتصالات السرية؟

-ماركس: هل سبق لاي رابطة تكونت ومارست اعمالها دون ممثليات خاصة او عامة خاصة لها؟ اما فيما يخص تعليمات سرية من لندن او قرارات حول مواضيع الاخلاق والعقيدة صادرة عن مركز سيطرة او مركز تخطيط، فنقول ان كل ذلك يعبر عن فهم خاطئ بالكامل حول طبيعة الرابطة الاممية، فهو يفترض وجود شكل من اشكال الحكومة المركزية للرابطة، بينما يتمثل الشكل الحقيقي لها في اعطاء القدر الاكبر من حرية العمل للطاقات المحلية المستقلة، فالرابطة الأممية هي في الواقع ليست سلطة عل الطبقة العاملة اطلاقا انها رابطة اتحادية اكثر منها محكومة بسلطة.

×لاندر: الى أي مدى هي اتحادية؟

-ماركس: ان التحرر الاقتصادي للطبقة العاملة يكون بالوصول الى السلطة السياسية. ويكون هدف تلك السلطة السياسية هو تحقيق الاهداف الاجتماعية. ومن الضروري ان تكون اهدافنا من الشمول بحيث تغطي كل اشكال النشاط الذي تقوم به الطبقة العاملة، ولجعل هذه النشاطات ذات سمات مميزة لابد من تهيئتها كي تتكيف مع حاجات طبقة واحدة، أي امة واحدة من العمال. ولكن كيف يمكن الطلب من جميع الناس ان يجمعوا على تأييد اهداف جماعة صغيرة؟ فهل لاجل القيام بذلك يتعين على الرابطة ان تفقد عنوانها الاممي؟ فهي شبكة من المجموعات المنتسبة بعضها الى بعض منتشرة في جميع انحاء عالم العمل، وهناك في كل جزء من اجزاء العالم جانب خاص من جوانب المشكلة يطرح نفسه ويقوم العمال هناك بتوجه لدراسته بطريقتهم الخاصة، ولا يمكن ان تكون المجموعات داخل الشغيلة متماثلة بتفاصيلها تماما في كل من نيوكاسل وبرشلونة او في لندن وبرلين. ففي انكلترا مثلاً تقع مهمة العمل سياسيا على عاتق الطبقة العاملة، اما العصيان المسلح فسيكون جنوناً في وقت يستطيع الحراك السلمي فيه ان يؤدي المهمة بصورة اسرع واكثر ثباتاً. اما في فرنسا فهناك مائة من القوانين القمعية وهناك الخصومات الاخلاقية بين الطبقات مما حتم فيما يبدو الحل العنيف للصراع الاجتماعي. ان خيار ذلك الحل هو قضية الطبقات العاملة في تلك البلاد، اما الرابطة الاممية فلا تستغل هذا الامر فتملي توجيهاتها، بل انها قلما توجه النصح، لكنها تتضامن مع الحركات وتمنحها العون في اطار حدود قوانينها السارية.

×لاندر: وما هي طبيعة ذلك العون؟

-ماركس: مثال على ذلك، ان اكثر اشكال حركات التحرير شيوعاً هي الاضرابات، في السابق عندما يحصل الاضراب في بلد ما، يتم القضاء عليه باستيراد العمال من بلد اخر، لقد توقفت الرابطة الاممية عن كل ذلك تقريباً، فهي تستلم المعلومات حول الاضراب المعني وتقوم بنشر تلك المعلومات بين اعضائها الذين سرعان ما يدركون بان ميدان ذلك النزاع يجب أن يعتبروه ارضا محرمة عليهم، وبذلك يدعون المضربين لتسوية حسابهم مع أرباب عملهم. لم يطلب العمال عوناً اكثر من ذلك في معظم الحالات، ان تبرعاتهم وتبرعات الجمعيات التي يزداد انضمامهم اليها، تمدهم بالمال، لكن اذا تعاظم الضغط عليهم ونال اضراب عمال ما موافقة الرابطة عندها يتم تأمين حاجاتهم الضرورية من مواردها. بهذه الطريقة انتهى اضراب صناعة السيجار في برشلونة نهاية ظافرة في اليوم التالي. الا ان الجمعية غير مهتمة بالاضرابات رغم انها توجه الدعم لها في ظل ظروف معينة، فالطبقة العاملة لا تستطيع ان تكسب كثيرا بالمعنى المادي، بل انها قد تخسر بسهولة. ولنجمل الحالة في كلمة مختصرة: فالطبقة العاملة تبقى فقيرة رغم ازدياد الثروة، وتبقى بائسة مع تعاظم الرفاهية. ان حرمانهم المادي من شأنه تقزيم قوامهم المعنوي وكذا الجسدي. ولا يمكنهم التعويل على الآخرين لايجاد العلاج، فصار لزاماً عليهم ان يمسكوا قضيتهم بأيديهم. يتعين عليهم ان يعيدوا النظر في العلاقات بينهم وبين اصحاب رؤوس الاموال والملاكين. وهذا يعني انهم يجب ان يقوموا بتحويل المجتمع، فهذا هو الهدف العام لكل منظمة عمالية معروفة. فجماعات العمل وجماعات الارض، وجمعيات التجارة الودية والمخازن التعاونية وجمعيات الانتاج الجماعي، كلها وسائل لبلوغ ذلك الهدف. ان توطيد التضامن التام بين تلك المنظمات هو مهمة الرابطة الاممية ، وتأثيرها آخذ بالظهور في كل مكان. فهناك صحيفتان في اسبانيا تقومان بنشر افكارها في البلاد، وثلاث صحف في المانيا، ونفس الرقم في النمسا وهولندا وستة في بلجيكا مع ستة صحف اخرى في سويسرا. والآن بعد ان اخبرتك عن ماهية الرابطة الاممية، لعلك اصبحت تستطيع تكوين رأيك الخاص حول مؤامراتها المزعومة.

×لاندر: لا افهمك تماماً.

-ماركس: الا ترى ان المجتمع القديم عاجز عن مواجهتنا باسلحته التقليدية وبالتوافق، لذلك فهو مضطر الى اللجوء الى خدعة الصاق تهمة التآمر بنا؟

×لاندر: لكن البوليس الفرنسي اعلن انهم يستطيعون أن يقيموا الدليل على تورطكم في القضية الاخيرة ولا نقول شيئاً عن المحاولات السابقة.

-ماركس: لكننا نحن الذين نريد ان نقول شيئاً حول تلك المحاولات، اذا سمحت، لانها خير ما يثبت بطلان تهمة المؤامرة الموجهة ضد الاممية. فانت تذكر المكيدة الأخيرة وهي واحدة فقط من تلك المكائد. يوم اعلن الاستفتاء العام، وبدا العديد من المقترعين مترددين، فلم يعودوا يشعرون تماما بقيمة الحكم الامبريالي بل صاروا لا يصدقون المزاعم عن الاخطار التي تهدد المجتمع الذي يفترض ان ينقذهم منها. فلابد من بعبع جديد. وقد تكفل البوليس بايجاده، انه جميع النقابات العمالية المكروهة من قبلهم، وطبيعي ان يشن البوليس حملة عدائية ضد الاممية. تلك هي فكرتهم السعيدة. فلماذا لا يختارون الأممية لتكون بعبعهم ذاك، وهكذا سارعوا الى تشويه سمعة الجمعية لخدمة قضية الامبريالية كسباً لرضاها؟ استخرجوا من جعبتهم المكيدة السخيفة ضد حياة الامبراطور. فكأننا اردنا قتل زميلهم القديم البائس، فألقوا القبض على اعضاء الرابطة الاممية القياديين، واختلقوا الادلة، واعدوا القضية لمحاكمتهم، وفي ذات الوقت اجروا استفتاءهم العام. لكن الملهاة التي أرادوها إنقلبت الى مهزلة رديئة وفاضحة البذاءة. ان اوربا الذكية راقبت المشهد فلم تخدع كما هو معهود في شخصيتها. الفلاح الفرنسي وحده لم يفطن للخدعة. ان صحفكم الانكليزية قد كتبت تقاريرها عند بداية الإتهام البائس، وفاتهم ان يلاحظوا الهدف، اما القضاة الفرنسيون فيسلمون بوجود المكيدة بكياسة رسمية وكانوا مضطرين للاعتراف بعدم وجود ما يشير الى تورط الاممية. صدقني ان المكيدة الثانية مشابهة للاولى وهناك مئة مؤشر على وجود مكيدة. التفسير الصحيح بشأنها هو تنامي الادراك في صفوف العمال، ادراك حال الرفاهية ونقص الكفاءة لدى حكامهم. والعملية التاريخية تتواصل الان لتحقيق الانتقال النهائي للسلطة من الطبقة الحاكمة الى الشعب. هناك تلاؤم واضح للزمان والمكان والظرف من اجل حركة تحرير عظيمة. ولكن من اجل ادراك كل تلك المؤشرات يتحتم على الموظف ان يكون فيلسوفاً، وهو ليس اكثر من مخبر. فبموجب القانون الذي اوجده تراه قد عاد الى السقوط في تفسير المخبر "مؤامرة". وإستمد منها حقيبة اوراقه القديمة الخاصة بالوثائق المزيفة بالأدلة، ان أوربا وهي تعيش رعبها ستصدق الرواية هذه المرة.

×لاندر: يندر ان تستطيع أوربا مساعدة نفسها ونحن نرى هنا ان كل جريدة فرنسية تعمل على نشر التقرير.

-ماركس: كل جريدة فرنسية! انظر، هذه أحداها (يتناول جريدة لاسيتويشن) واحكم بنفسك على قيمة الدليل كنوع من التحقق من وجود الحقيقة (يقرأ) لقد تم القاء القبض على الدكتور كارل ماركس قائد الاممية في بلجيكا، وهو يتوجه الى فرنسا، لقد وضع بوليس لندن عيونه على الجمعية التي يرتبط بها منذ زمن طويل وهم الآن يتخذون الاجراءات النشيطة لكبحها. جملتان وكذبتان. تستطيع ان تفحص الدليل على ضوء ما تشاهد. فاني الآن في منزلي في لندن ولست في السجن في بلجيكا. ويتعين عليك ايضاً ان تعلم ان البوليس في انكلترا غير قادر على النزاع مع الاممية مثلما ان الأممية غير قادرة على ذلك ايضاً. لكن ما هو معتاد اكثر من غيره ان التقرير سوف ينشر على جميع الصحافة الأوربية دون أي تكذيب.

×لاندر: هل حاولت تكذيب العديد من هذه التقارير الكاذبة؟

-ماركس: لقد فعلت ذلك لحد الانهاك من هذا العمل. لتوضيح فداحة الطيش الذي به تلفق هذه التقارير، استطيع الاشارة الى اني رأيت في إحدها ان فيليكس بايت "سياسي وكاتب مسرحي فرنسي وأحد قادة كومونة باريس" قد اعتبر عضواً في الأممية.

×لاندر: وهل هو غير ذلك؟

-ماركس: الرابطة لا تستطيع ان توفر مكاناً لرجل متوحش مثل هذا. لقد كان في احدى المرات وقحاً بما يكفي، بحيث اصدر سلسلة متلاحقة من البيانات باسمنا، لكننا استنكرناها على الفور. ولأنصاف الصحافة نقول انها اهملت نفينا لما نشر.

××لاندر: و(الثوري الايطالي) ماتزيني، هل هو عضو في جماعتكم؟

-ماركس: "ضاحكا" آه، كلا، التقدم الذي احرزناه كان سيتراجع لو لم نتجاوز نطاق آرائه..

×لاندر: انت تفاجئني، كنت اعتقد انه قد مثل الآراء هي الأكثر تقدمية فعلا؟

-ماركس: انه لا يطرح أبعد من فكرة جمهورية الطبقة الوسطى، ونحن لا نسعى الى أية مشاركة مع الطبقة الوسطى. لقد سقط الرجل بعيداً في مؤخرة الحركة الحديثة كما فعل الاساتذة الألمان الذين ينظر اليهم في أوربا باعتبارهم رسل دمقرطية المستقبل الرفيعة. لقد كانوا هكذا مرة ربما قبل ٤٨، حيث قامت الطبقة المتوسطة الالمانية بالمعنى الانكليزي باحراز تقدمها بشق الانفس، لكنهم الآن تحولوا الى الرجعية ولا تعرفهم البروليتاريا بأكثر من ذلك.

لقد فعلت ذلك لحد الانهاك من هذا العمل. لتوضيح فداحة الطيش الذي به تلفق هذه التقارير، استطيع الاشارة الى اني رأيت في إحدها ان فيليكس بايت "سياسي وكاتب مسرحي فرنسي وأحد قادة كومونة باريس" قد اعتبر عضواً في الأممية.

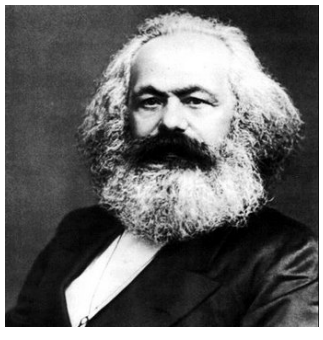

لاندر: يعتقد البعض انهم لاحظوا مؤشرات على وجود العنصر الواقعي "الذرائعي" في منظمتكم.×

-ماركس: لا يوجد مثل ذلك. يوجد واقعيون بيننا ويعمل آخرون من خارج جماعتنا ايضاً. لكن ذلك ليس استنادا على فلسفتهم التي ليس لها علاقة بالحكومة الشعبية كما نفهمها والتي تسعى الى وضع هرمية جديدة مكان الهرمية القديمة.

لاندر: لهذا يبدو لي انه قد يتعين على زعماء الحركة الأممية تكوين فلسفة وكذلك رابطة خاصة بها.×.

-ماركس: بالضبط. هناك احتمال قليل على سبيل المثال في اننا قد توخينا النجاح في حربنا ضد رأس المال اذا استمدينا تكتيكاتنا من الاقتصاد السياسي الذي وضعه الفيلسوف والاقتصادي البريطاني جون ستيوارت. لقد اكتشف نمطاً واحدا من العلاقة بين العمل ورأس المال، ونحن نتوخى اثبات ان من الممكن انشاء علاقة اخرى..

لاندر: مع ذلك اقمتم مركز قيادتكم في هذا البلد؟

-ماركس: لأسباب واضحة فحق وجود الرابطة هنا هو شيء معترف به. انها موجودة فعلاً في المانيا لكنها محاطة بصعوبات لا حصر لها. اما في فرنسا فهي غير موجودة اطلاقاً لسنين طويلة

×لاندر: والولايات المتحدة الامريكية؟

- ماركس: ان المراكز الرئيسية لنشاطنا في الوقت الحالي توجد وسط المجتمعات القديمة. هناك كثرة من الظروف تميل حتى الآن الى اعاقة تحول قضية العمل في الولايات المتحدة الى ان تصبح شأناً يستحوذ على الانتباه. لكن هذه الظروف في حالة اضمحلال سريع كما حصل في أوربا، وتتقدم هذه المسألة الى الصدارة بسرعة مع نمو الطبقة العاملة كطبقة متميزة في المجتمع ومنفصلة عن رأس المال.

×اندر: يبدو لي ان الحل المأمول في هذا البلد مهما كان نوعه سوف يتحقق دون اللجوء الى وسائل العنف الثوري. هناك سمة مشجعة للنظام الانكليزي في النقاش والمناظرة عن طريق المنابر والصحافة بحيث يمكن تحول الأقلية الى أكثرية؟..

-ماركس: لست متفائلاً مثلك في هذه النقطة، فالطبقة الوسطى الانكليزية اظهرت نفسها دائماً كطبقة راغبة في قبول حكم الأغلبية طالما انها تنعم باحتكار سلطة الاقتراع. ولكن سجل عليّ ما اقول: فحالما تجد هذه الطبقة نفسها وقد خسرت الاقتراع حول ما تعتبره قضايا حيوية، سنرى عندها حربا جديدة يخوضها مالكو العبيد.

ختاما، في ما تقدم عرضت عليكم عناوين حديثي مع الرجل الاستثنائي بقدر ما اسعفتني الذاكرة. سأترككم تستخلصون استنتاجاتكم الخاصة. ومهما قيل عن احتمال أو عدم احتمال تورطها في حركة الكومونة فنحن قد نكون على يقين من ان العالم المتمدن يمتلك بوجود الرابطة الاممية قوة جديدة يتعين معها قريباً ان يطرح تقديراته حول الصالح والطالح بشأنها.

ترجمة عبد العزيز لازم
عن انكارتا ريفيرس لايبرار

راس المال

كتاب يتجدد كل يوم

قال فريدريك انجار في رثائه لكارس ماركس: " كان ماركس قبل كل شيء ثوريا هدفه العظيم في الحياة ان يتعاون بهذه الصورة او تلك ، لقهر المجتمع الرأسمالي، ومؤسسات الحكومة التي خلفها" بهذه الالفاظ لخص معاون كارل ماركس وتلميذه واخلص اصدقائه، في ايجاز القوة الدافعة في حياة ذلك المتمرد الاجتماعي الشهير .

ولد ماركس في عصر كثير الشغب، كان الجور مشحونا بالتمرد والقلق، كانت ذكرى الثورة الفرنسية ما زالت عالقة بالاذهان، وثورة اخرى قريبة، وتميزت السنوات العشر التالية بمرارة عامة واسعة النطاق

، وبالتذمر والنقد ضد الحكومة القائمة، وفي عام ١٨٤٨ نمت هذه الحالة الى قوة متفجرة، ونشبت الثورات خلال اوروبا، وحتى في انكلترا قامت حركة العمال مطالبين باشراكهم في السياسة ، وهددت الحكومة القائمة وقتذاك، سرى الضغط في كل مكان لتخفيف حدة سوء المعاملة الناتج عن مبدأ العمال الجديد، والغاء بقايا الاقطاع، كان الوقت مناسبا جدا لميول كارل ماركس الثورية.

درس ماركس الصغير القانون والفلسفة في بون وبرلين بهدف الحصول على منصب استاذ، ولكن الباب اقفل في وجه بسبب ارائه السياسية، فاتجه نحو الصحافة، تاسست صحيفة دورية جديدة ... في عام ١٨٤٢ ، فصار ماركس اول مكاتب لها ، ثم ما لبث ان صار رئيس تحريرها وبسبب الهجوم المتكرر

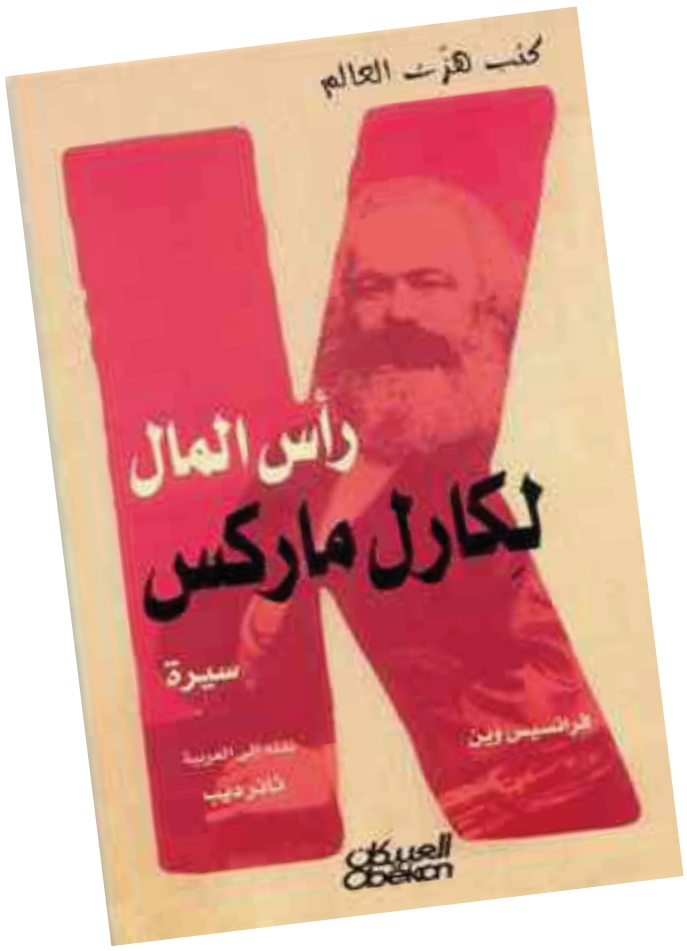

روبرت داونز

لتلك الصحيفة على حكومة بورسيا واتجاها المتطرف عموما، اوقفت عن الصدور وعمرها لايزيد على السنة الا قليلا.

انتقل ماركس الى باريس ليدرس الاشتراكية، ويكتب في جريدة اخرى قصيرة الاجل فتعرف هناك على اهم ممثلي الفكر الاشتراكي والشيوعين واهم حادث في حياته ومستقبله هو بداية صداقته التي استمرت طول حياته مع فردريك انجلز وهو زميل الماني غني نسبيا، وابن صاحب مصنع للقطن، ومن انصار المثل الاشتراكية ، مثل ماركس نفسه. وضع انجلز اساس كتاب ماركس رأس المال في عام ١٨٤٥ مع نشر كتابه "حالة الطبقات العاملة في انكلترا".

واذا استمر ماركس في اثارة الاراء ضد الحكومة البروسية، طردته السلطات الفرنسية على انه اجنبي غير مرغوب فيه.

فلجأ الى بروكسل وبقي فيها ثلاثة اعوام ثم عاد الى المانيا لمدة قصيرة ونفي ثانية فعاد الى باريس ابان ثورة ١٨٤٨ ، وفي ذلك العام بالاشتراك مع انجلز، كتب ونشر كتيبه "البيان الشيوعي" الشهير، وهو احد الاعمال الادبية المتطرفة ذات الاثر القوي والبالغة العنف، التي اخرجتها المطابع.

ويختتم هذا الكتيب كلامه بصيحة تحريض على الثورة.

"يعتبر الشيوعيون انه من الامور السطحية ان يخفوا اراءهم ونياتهم، انهم يقررون في صراحة ان اهدافهم لايمكن تحقيقها الا باستخدام العنف في قلب النظام الاجتماعي المعاصر كله، فلترتجف الطبقات الحاكمة امام الثورة الشيوعية، لن يخسر العمال غير قيودهم.. وامامهم العالم كله ليرجوه اذن فاتحدوا ياعمال العالم" !

اينما ذهب ماركس، كان بالغ النشاط ينظم حركات العمال، ويراس تحرير الصحف الشيوعية، ويثير التمرد. جعل تدهور الثورات الاوروبية ١٨٤٨ -٤٩ الدنيا ضيقة جدا لاتتسع لماركس ، هاجر الى انكلترا في صيف عام ١٨٤٩ وهو في الحادية والثلاثين من عمره ،ة وقضى اخر حياته في لندن، وتزوج قبل ذلك جيني فون وستفالين ابنة موظف بروسي، بقيت معه حوالي اربعين عاما شريكته الوفية تقاسمه فترات الفقر المدقع والحرمان وسوء الحظ لم يعش من اولادهما الستة غير ثلاثة، ومن هؤلاء الثلاثة انتحر اثنان، ومما لاشك فيه، ان ثلاث سنوات من الشدائد المتناهية قد لونت اراء ماركس، وتعد مسؤولة عن الحدة والثورية في كتابته..

ولم ينقذ اسرة ماركس من الموت الحقيقي جوعا سوى المساعدات المالية، في كثير من المرات، من فريدريك انجلز، وكان دخل ماركس الوحيد مما يكسبه ، جنيها واحدا في الاسبوع يتسلمه من صحيفة نيويورك تريبيون، وبعض الاجر المتقطع من كتابة بعض الموضوعات القصيرة.

وبرغم البؤس والدائنين الملحين، والمرض والحاجة، التي احاطت به باستمرار في منطقة سوهو التي اقام بها في لندن، كان كعادته دائماً لايكل في تقدمه في القضايا الاشتراكية سنة بعد سنة، كان يذهب الى المتحف البريطاني لفترات تصل الى ست عشرة ساعة في اليوم، يجمع الكميات الهائلة من المواد لمؤلفه الذي سيكون عنوانه رأس المال.. ومع عدم حساب فترات التعطل عن التأليف بسبب الاعمال الاخرى والمرض استغرق اعداد هذا الكتاب اكثر من ثماني عشرة سنة، اما انجلز الذي كان يعول عائلة ماركس في تلك الاثناء ، فقد يئس من اكمال الكتاب، وقال: "اليوم الذي تذهب فيه النسخة الخطية الى المطبعة، سأسكر طينة" ، كما اشار اليه هو وماركس بقولهما : " ذلك الكتاب اللعين"، واعترف ماركس بانه "كابوس حقيقي" .

كان اعظم حادث في حياة ماركس ابان هذه السنين هو تأسيس اول جمعية دولية للعمال الرجال في عام ١٨٦٤، والتي تعرف الان باسم الدولية الاولى، انها مجهود لضم الطبقات العاملة في العالم كله معا في جمعية دولية. هذا وبرغم ان ماركس كان متقاعدا امام الجمهور، فقد كان القوة المحركة وراء العرش، وكان يكتب معظم مستندات الجمعية وعناوينها ولوائحها وبرنامجها ، غير ان العراك الداخلي والمنافسة على الرئاسة والنزاع الذي وقعت فيه الجمعية بعد فشل تمرد باريس في عام ١٨٧١ ، كل هذه ادت الى حل الجمعية، وبعد ذلك اعقبتها الجمعية الدولية الثانية وتمثل الجماعات الاشتراكية الغربية.

ثم الجمعية الدولية الثالثة او الكومنترن للعالم الشيوعي.

واخيرا انتهت مدة تأليف كتاب "راس المال". ففي اواخر عام ١٨٦٦، ارسلت النسخة الخطية للجزء الاول الى هامبورغ.. وفي اوائل السنة التالية خرج الكتاب المطبوع من المطبعة باللغة الالمانية. ولم تكن هناك ترجمة انكليزية له الا بعد حوالي عشرين عاما. واول ترجمة الى لغة اخرى على ضوء احداث المستقبل – كانت باللغة الروسية في عام ١٨٧٢.

كانت انكلترا في عصر ماركس، المعرض الاول لاعمال النظام الرأسمالي ، وعلى ذلك اخذت الامثلة الموضحة لنظرياته الاقتصادية ، كلها تقريبا، من تلك المملكة. كانت الامثلة المروعة كثيرة، لان تنظيم الراسمالية في منتصف العصر الفيكتوري كان في اسوأ حال بها فكانت الاحوال الاجتماعية بين عمال المصانع سيئة بما يعجز عنه الوصف.. واذ بنى ماركس ابحاثه على التقارير الرسمية لمفتشي الحكومة.. فقدم الحقائق دقيقة في كتاب "راس المال" ، حيث وصف احوال المجتمع انذاك اذ تقوم السيدات بجر القوارب في الانهار الصغيرة بالحبال المربوطة في اكتافهن، طوال الطريق، وربطت السيدات الى العربات كما تربط دواب الحمل. لنقل الفحم الى خارج المناجم البريطانية.

اما الاطفال فكانوا يعملون في مصانع النسيج عندما يبلغون التاسعة او العاشرة من العمر، ولمدة خمس عشرة ساعة في اليوم، ولما جاءت ادوار العمل ليلا، كانت الاسرة التي ينام فيها الاطفال دافئة دائما لا تبرد اطلاقا، اذ كانت تستعمل بالدور، وقد انشب السل وغيره من امراض الاماكن المزدحمة اظفاره فيهم وقتلهم في نسبة عالية.

لم تكن الاحتجاجات على هذه الاحوال الفظيعة قاصرة على ماركس بحال ما، فان الكتاب الرقيقي القلوب المختصين بالامور الانسانية امثال تشارلز ديكنز وجون رسكين وثوماس كارليل، كتبوا كثيرا في حماس شديد، يطلبون الاصلاح، واثير البرلمان اخيرا الى اصدار تشريع اصلاحي.

زها ماركس كثيرا بشرحه العلمي للمسائل الاقتصادية والاجتماعية، وكما قال انجلز: " كما ان داروين اكتشف قانون التطور في الطبيعة العضوية، كذلك اكتشف ماركس قانون التطور في التاريخ الانساني، " ذكر ماركس ان الظواهر الاقتصادية "يمكن ملاحظاتها وتسجيلها بالدقة الملائمة للعلوم الطبيعية.." ويشير كثيرا الى مؤلفات علماء الاحياء والكيمياء والفيزياء (الطبيعة). ومن الجلي انه كان يأمل في ان يصير "داروين علم الاجتماع" أو ربما "نيوتن الاقتصاد" وبالتحليل العلمي للمجتمع، اعتقد ماركس انه اكتشف كيف يمكن تحويل العالم الرأسمالي الى عالم اجتماعي.

اسهمت طريقة ماركس "العلمية" كثيرا في تفهم الناس له على نطاق واسع. لأن فكرة التطور في جميع المجالات قد جذبت خيال القرن التاسع عشر، ويربط نظريته عن التنازل التاريخي بنظرية دارون عن النشوء او التطور، ويربط نظريته عن التنازع التاريخي بنظرية دارون عن النشوء او التطور.. فأضفى الوقار على ارائه ، وفي الوقت نفسه جعلها، حسب اعتقاده غير قابلة للدحض، في رأي ماركس ان اسهامه البالغ في دراسة الاقتصاد والتاريخ وغيرهما من العلوم الاجتماعية الاخرى، كان تقدما لمبدأ اطلق عليه "المادية الجدلية" وهو مصطلح غامض عسير الفهم، ولو انه مشروح شرحا وافيا في كتابات سابقة، فان كتاب "رأس المال" يستخدم هذه النظرية بالتفصيل.

اخذ ماركس الطريقة الجدلية عن

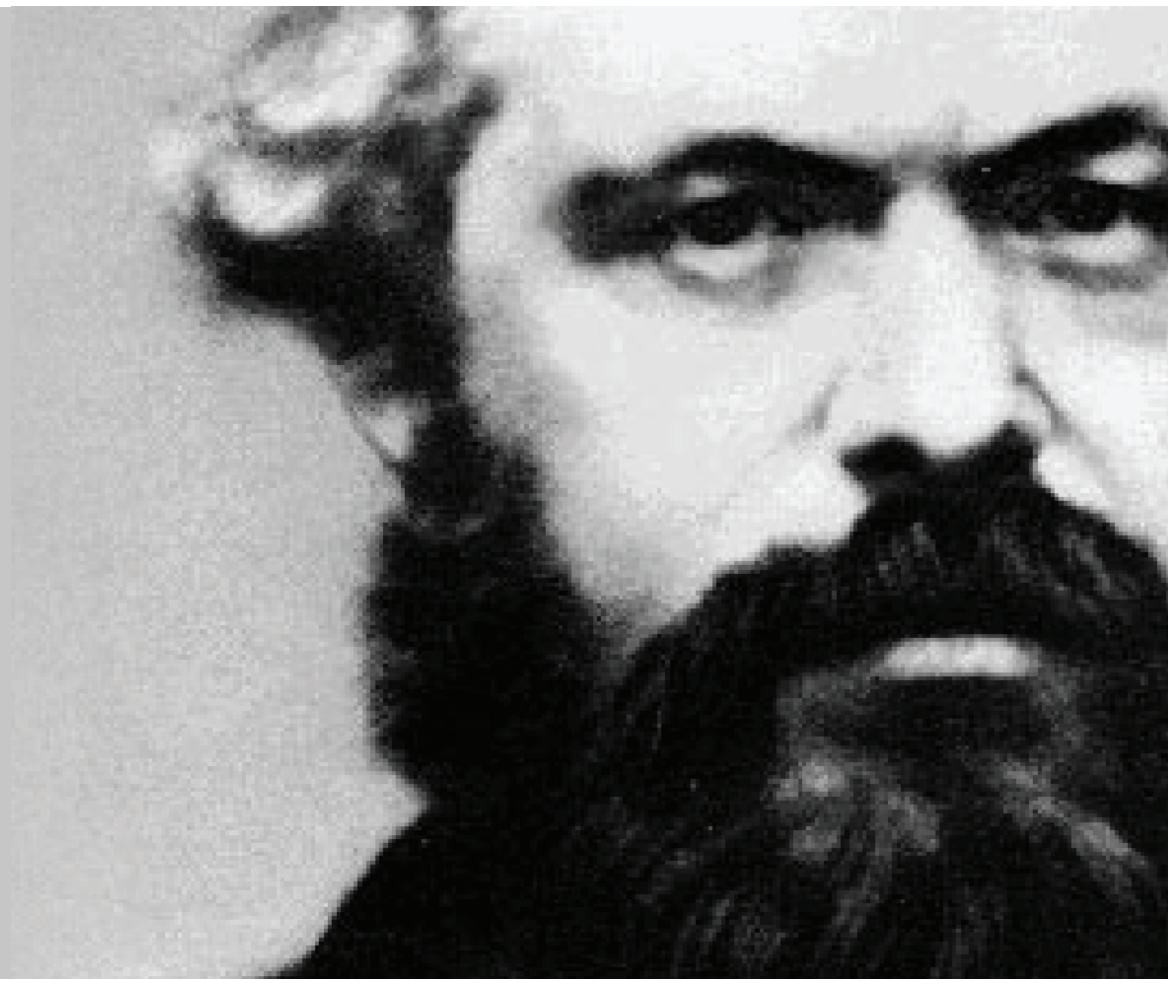

انهم يشوهون العمل الى جزء من رجل، وينزلونه الى مستوى قطعة زائدة بالالة، ويحطمون كل بقية من الجمال في عمله ويحولونه الى كد مقيت، ويبعدون عنه القوى العقلية لعملية العمل بنفس نسبة وجود العلم في ذلك العمل كقوة مستقلة ، ويشوهون الظروف التي يعمل فيها ويعرضونه اثناء عملية العمل الى استبداد مقيت جدا لوضاعته، ويحولون عمره الى وقت عمل، ويجرون زوجته وطفله تحت عجلات تمثال رأس المال.

الفيلسوف الالماني هيجيل وتقول في جوهرها ان كل شيء في الدنيا في حالة تغير مستمر، ويتحقق التقدم بتفاعل القوى المتعارضة، كل مع الاخرى، فمثلا: بتعارض النظام الاستعماري الانكليزي مع الثورة الاميركية نتجت عن ذلك الولايات المتحدة، وكما عبر عن ذلك لاسكي بقوله: "قانون الحياة هو تجارب المتناقضات وينتج عنها النمو".
قاد هذا التمهيد ماركس الى تكوين نظريته عن "المادية التاريخية" أو "التفسير الاقتصادي للتاريخ" قال ماركس وانجلز في جدالهما: "ما تاريخ كل المجتمع الحاضر سوى تاريخ نضال الطبقات: الحر والعبد، والنبلاء والعوام، السيد والمسود، رئيس المؤسسة والعامل، وبالاختصار وقف الظالم والمظلوم، كل منهما في مواجهة الاخر، ونشبت بينهما حرب مستمرة".
وقال انجلز في رثاء ماركس: "لقد اكتشف الحقيقة البسيطة المختبئة تحت الاعشاب الفكرية، وهي ان الكائنات البشرية يجب ان تحصل على الطعام والشراب والملبس والمسكن، اولا وقبل كل شيء وقبل ان تجد المتعة في السياسة والعلوم والفن والدين، وما الى ذلك وهذا يتضمن ان انتاج اللوازم الضرورية للحياة، وطور التقدم الاقتصادي الحالي لامة او لحقبة من الزمان ، تكون الاساس الذي بنت عليه الحكومة نظراتها القانونية والافكار الفنية والدينية لأولئك المختصين"
وقصارى القول، ان التنازع من اجل الطعام والماوي نزاع بالغ القوة ويقرر كل شيء اخر من الامور البشرية
وتاريخ البشرية، تبعا لماركس ، هو اولا، قصة استغلال طبقة اخرى، وفي عصور ما قبل التاريخ، كان هناك مجتمع قبائلي او مجتمع لا طبقي، اما في العصور التاريخية فيقول ماركس: "تكونت الطبقات وصارت جموع السكان البشرية، اولا عبيدا ثم خدما "الحالة الاقطاعية) ثم عبيدا بالاجر لايمتلكون شيئا (العصر الرأسمال)، وبتطبيق نظرية "المادية الجدلية"، اقتنع ماركس ان الخطوة الحتمية بعد ذلك هي تمرد العمال و"دكتاتورية الطبقة العاملة" يتبعه الملكية الشيوعية والعودة الى نظام المجتمع اللاطبقي.
طور ماركس، في كتابه، "رأس المال" قضيته ضد النظام الرأسمالي ، ليبرهن في تقديره على ان هلاكه اخيرا واختفاءه، امران لامفر منهما، وهنا كون ما يعتبره الشيوعيون عموما اسهامه الثاني البالغ الاهمية في العلوم الاجتماعية، وهي نظرية قيمة العمل، كذلك لم تكن هذه اصلا نظرية من تفكير ماركس، فاذا سار على نهج علماء الاقتصاد الاكبر منه سنا، وهما آدم سميث ودافيد ريكاردو، اكد ان العمل مصدر كل القيم، وذكر ماركس فقرة من بنيامين فرانكلين، الذي لاحظ منذ قرن مضى ان "التجارة ليست الا مبادلة عمل بعمل، وتقاس قيمة كل شيء بالعمل". واخذ عن سميث تعريف رأس المال بأنه "كمية معينة من العمل مكتلة ومحفوظة في صورة احتياطي"، كما ان ريكاردو اقترح ان ثمن اية سلعة وقيمتها يجب ان يقدر بكمية العمل الداخلة فيها.
اتخذ ماركس هذه الاقوال كمقاييس بنى عليها نظريته عن "قيمة الفائض" فذكرها اولا في مقاله "نقد الاقتصاد السياسي (عام ١٨٥٩) ثم نقحها وذكر الصورة المنقحة في كتابه "رأس المال".ولما كان العامل لايملك شيئا، فليس لديه غير سلعة واحدة ليبيعها –وهي عمله، ولكي يتحاشى الموت جوعا، يجب عليه ان يبيعها، وتبعا للنظام الاقتصادي السائد، يشتري صاحب العمل هذه السلعة بأقل ثمن ممكن. اذا، فالقيمة الفعلية للعمل تزيد كثيرا على الاجر المدفوع.
فالعامل الذي يدفع له صاحب العمل اربعة شلنات في اليوم، يكسب هذا المبلغ فعلا في ست ساعات، ولكن يطلب منه ان يعمل عشر ساعات، اذن فصاحب رأس المال يسرق من العامل تلك الساعات الاربع الزائدة.
واذ فسر الامر على هذا النحو، فأن الارباح، وفوائد المبالغ والاوراق المالية، وايجار المساكن ونحوها، مشتقة كلها من قيمة كد العمل الزائد المسروق من العمال، اذن يمكن ان نستنتج منطقيا ان نظام صاحب رأس المال ليس سوى طريقة شريرة وضعت لاستغلال طبقة العمال وسرقتهم.
اما نظرية ماركس عن قيمة الفائض فقادته الى الخطوة التالية في فرضه، فلكي يقابل كل رأسمالي المنافسة الوحشية، يحاول استخراج مزيد من القيمة الفائضة بطرق شتى، مثل: اطالة ساعات العمل، او تخفيض الاجور أو استخدام طريقة المد ويستخدم مزيدا ومزيدا من الالات لتقلل العمل وتسرع الانتاج، وباستخدام الالات التي تحتاج في ادارتها، الى قوة بدنية اقل ، ويمكن استبدال الرجال بعمل النساء، والاطفال الارخص اجرا، ويصف ماركس نتيجة ذلك، هكذا:
انهم يشوهون العمل الى جزء من رجل، وينزلونه الى مستوى قطعة زائدة بالالة، ويحطمون كل بقية من الجمال في عمله ويحولونه الى كد مقيت، ويبعدون عنه القوى العقلية لعملية العمل بنفس نسبة وجود العلم في ذلك العمل كقوة مستقلة ، ويشوهون الظروف التي يعمل فيها ويعرضونه اثناء عملية العمل الى استبداد مقيت جدا لوضاعته، ويحولون عمره الى وقت عمل، ويجرون زوجته وطفله تحت عجلات تمثال رأس المال.
وهكذا يلح ماركس بأن استخدام الالات لاسراع الانتاج وزيادته، لايفشل فقط في تسهيل حظ العامل، ولكن له اثار ضارة، مثل خلق البطالة، وزيادة انتاج السلع على القدر المطلوب، وقتل لذة العامل في عمله، ويستطرد ماركس قائلا: "الالات امضى سلاح لقمع الاضرابات التي هي التمرد الدوري للطبقة العاملة ضد السلطة المطلقة لرأس المال.. كانت الالة البخارية.. منذ البداية خصما مكن الرأسمال من ان يطأ تحت قدميه المطالب المتزايدة للعمال الذين هددوا نظام المصانع المولود حديثا، بأزمة. من الممكن كتابة تاريخ باكمله عن المخترعات التي ظهرت منذ عام ١٨٣٠ لغرض وحيد هو تزويد راس المال بسلاح ضد تمردات طبقة العمال"
وفي طبيعة الاشياء يجب على قوة العمل الفائض ان تتحمل مددا طويلة من البطالة بعد ذلك تظهر اعظم لعنة للرأسمالية: الكساد والذعر، فبما ان العمال يتقاضون اجور لا تكاد تفي بما يسد الرمق. فلا يستطيعون شراء جميع ما تنتجه المصانع، فتكتظ الاسواق بالبضائع، وتقل قوة العمل، ويتبع ذلك كساد عنيف.
ولكي يبحث الرأسمالي عن مخارج للبضائع الكثيرة المكدسة في مخازنه، يتجه الى المجالات الاجنبية فيحاول ايجاد اسواق في الدول المتخلفة في الخارج ليشحن اليها السلع التي لايستطيع عماله شراءها.. وهذه المحاولة والبحث عن المواد الخام التي تمكن مصانعه من الاستمرار في العمل بغير انقطاع تؤدي الى الالتحامات الدولية والحروب الاستعمارية.
اعتقد ماركس ان النتيجة النهائية لنضال الرأسمالي وشغبه هي زيادة التركيز والاحتكار، لأن "احد الرأسماليين يقتل الكثيرين دائما".. تختفي الطبقة المتوسطة عندما يلتهم كبار الرأسماليين يقتل الكثيرين دائما". تختفي الطبقة المتوسطة عندما يلتهم كبار الرأسماليين صغارهم، واخيرا تبقى حفنة من كبار الرأسماليين تواجه جموع العصاميين ، وعندما يأتي ذلك الوقت، يجد العصاميون فرصتهم، وتصف احدى فقرات كتاب "رأس المال" الاكثر حيوية والجديرة بالتذاكر، الخطوات المؤدية الى حل المشكلة.
لم ينشر في حياة ماركس سوى الجزء الاول من "انجيل الطبقات العاملة" فبعد موته في عام ١٨٨٣ اخذ انجلز مذكراته الخطية غير الكاملة وغير المرتبة بنظام، للجزءين الثاني والثالث.
فظهر الجزء الثاني في عام ١٨٨٥ والثالث في عام ١٨٩٤ قبل موت انجلز بعام واحد. ويضمان تنقيحات واستعمالات للنظريات الاساسية الخاصة "بتداول رأس المال" و"عملية الانتاج الرأسمالي ككل"، وترتكز شهرة ماركس على الجزء الاول اما الجزءان الاخران فلم يقرءا الا قليلا..وبرغم هذا فان مؤلفا آخر عن "نظرية قيمة الفائض) التي كانت مخصصة للجزء الرابع من كتاب "رأس المال" تعهد به كارل كاوتسكي، من مخطوطات ماركس، ونشر في المانيا (١٩٠٥ –١٩١٠).

اما نظرية ماركس عن قيمة الفائض فقادته الى الخطوة التالية في فرضه، فلكي يقابل كل رأسمالي المنافسة الوحشية، يحاول استخراج مزيد من القيمة الفائضة بطرق شتى، مثل: اطالة ساعات العمل

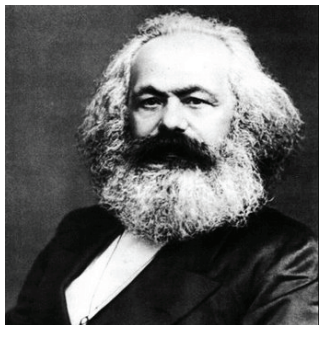

عن كتاب كتب غيرت العالم
ترجمة امين سلامة
القاهرة ١٩٦٢

إقبال كبير على كارل ماركس

بقلم خوليو غودوي

– أصبحت مؤلفات كارل ماركس ونظرياته عن الرأسمالية ودور الدولة في تسيير الاقتصاد، واحدة من السلع القليلة التي زادت مبيعاتها مؤخرا وسط حالة الركود الراهنة. فقد باعت دار نشر ألمانية من كتابه «رأس المال» في شهر واحد، أكثر من خمسة أضعاف ما كانت تسوقه في عام كامل.

في حديث ل «آي بي اس» قال مدير دار النشر كارل ديبز فيرلانغو في برلين، جويرن شويترومبف، التي تنشر أعمال ماركس كاملة باللغة الألمانية، أن «الإقبال كبير علي مؤلفات ماركس بفضل أزمة الليبرالية الجديدة».

وأضاف شويترومبف «إذا كانت مؤلفات ماركس تتصدر قوائم المبيعات، فهذا يعني أن المجتمع يجتاز فترة عسيرة حقا. العاصفة المالية والركود الاقتصادي وراء إحياء نظريات ماركس».

يستفيد شويترومبف من الأزمة. فقد باعت دار النشر التي يديرها أكثر من ٥٠٠ نسخة من كتاب «رأس المال» في شهر أكتوبر وحده، تمشيا مع التوجه الذي بدأ ببداية العام الحالي.

وشرح أنه حتي عام ٢٠٠٤ «كنا نبيع أقل من ١٠٠ نسخة من كتاب «رأس المال» في السنة. أما في العشرة أشهر الأولي من ٢٠٠٨، فقد بعنا ما يزيد علي ٢،٥٠٠ نسخة. من الواضح أن الناس مهتمة بما لدي كارل ماركس من قول حول أسباب عدم نجاح الرأسمالية».

هذا وتتجدد شعبية نظريات كارل ماركس في ألمانيا بين المفكرين اليساريين أساسا. والآن تقدم أكثر من ٣٠ جامعة في مختلف أنحاء ألمانيا، دورات دراسية حول نظريات ماركس ومحاضرات حول كتاب «رأس المال».

وينظم غالبية هذه الدورات اتحاد الطلبة الاشتراكيين ومؤسسة «روزا لوكسمبورغ» ذات الصلة ب «حزب اليسار» الذي شكله شيوعيون سابقون واشتراكيون ديمقراطيون.

لكن شويترومبف يؤمن بأن «شعبية ماركس تتجاوز نطاق هذه المجموعات. ففي هذه الأزمة، نري العديد من الناس يعودون إلي الكنيسة فيما يبحث آخرون، الأكثر عقلانية، عن جواب للمشاكل الاجتماعية يتعدي الأديان، وماركس منطلق مناسب» لمثل هذا المسار.

وهناك البعض الآخر الذي يسعي إلي المزج بين الدين ونظرية ماركس، ومنهم أسقف ميونخ رينهارد ماركس ماركس، الذي لا صلة له بكارل ماركس، والذي وضع كتابا جديدا عنوانه «رأس المال»، باعت طبعته الأولي ١٥،٠٠٠ نسخة منذ شهر سبتمبر.

التقت «آي بي اس» الأسقف ماركس فقال «لم أهجر أبدا إغراء التحول إلي الماركسية. فأنا أؤمن بالمنشور الباباوي الذي أصدره البابا ليو الثالث عشر في عام ١٨٩١ علي صورة رسالة مفتوحة للأساقفة الكاثوليكيين».

وشرح أن المنشور تناول العلاقة بين الرأسمالية والعمل، وبين الحكومات والشعوب، والحاجة إلي التخفيف من وطأة «البؤس والتعاسة التي تأن تحتها غالبية الطبقة العاملة»، وأيد حق العمال في تشكيل نقابات، ورفض الشيوعية والرأسمالية المطلقة علي حد السواء، ودعم حق الملكية الخاصة.

يخاطب الأسقف ماركس في مقدمته لكاتبه، الفيلسوف الثوري كارل ماركس، معربا له عن إعجابه ببعد نظره. وأكد الأسقف ل «آي بي اس» أن كارل ماركس قد «تنبأ منذ ١٥٠ عاما بالعولمة ورأي بالفعل فشل الرأسمالية».

ويذكر أن كارل ماركس في كتابه «رأس المال»، وصف الرأسمالية بالتنافس الفوضوي، اللا عقلاني بل والأعمى، وراء تحقيق الربح، وطرح ضرورة إدارة الدولة للاقتصاد، من منطلق نظام قواعد عقلاني يهدف لاستئصال الفقر والظلم الاجتماعي.

وأخيرا، يذكر أن شعبية كارل ماركس لا تقتصر علي ألمانيا، ففي فرنسا أفادت دار النشر «صحافة الجامعة» التي تنشر كتبه، أن مبيعاتها من كتاب «رأس المال» قد تضاعفت ثلاثة أضعاف منذ عام ٢٠٠٨.

عن (آي بي إس)

يخاطب الأسقف ماركس في مقدمته لكاتبه، الفيلسوف الثوري كارل ماركس، معربا له عن إعجابه ببعد نظره. وأكد الأسقف ل «آي بي اس» أن كارل ماركس قد «تنبأ منذ ١٥٠ عاما بالعولمة ورأي بالفعل فشل الرأسمالية».

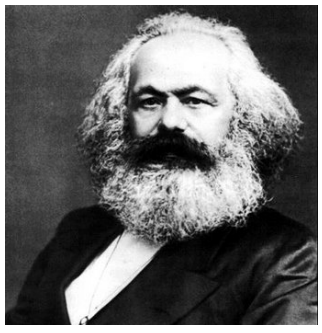

نظرة كارل ماركس ومشكلات المال اليوم

هارولد جيمس

عاد كارل ماركس، عاد من قبره، فأخيرا، قال وزير المالية الألماني بير شتاينبروك إن الحلول التي طرحها ماركس «قد لا تكون في غير محلها» حين نتحدث عن مشاكل اليوم. كما سمح الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي بالتقاط الصور الفوتوغرافية له وهو يتصفح أوراق كتاب كارل ماركس «رأس المال». وتعهد المخرج الألماني الكسندر كلوغ بتحويل كتاب رأس المال إلى فيلم.

إن قلة من «الماركسيين» الجدد اليوم يرغبون في شرح وتوضيح مناقب الرجل الذي كان يريد توحيد الفلسفة الألمانية (استناداً إلى آراء هيغل) مع الاقتصاد السياسي البريطاني (استمراراً لآراء ديفيد ريكاردو)، وبالتالي تحويل عقيدتين محافظتين إلى نظرية ثورية راديكالية.

لا شك أن ماركس كان محللاً شديد الإدراك والتفهم لنسخة القرن الـ ١٩ من العولمة. ففي عام ١٨٤٨ كتب في البيان الشيوعي يقول: «في محل العزلة المحلية والوطنية القديمة والاكتفاء الذاتي، سيصبح لدينا علاقات تواصل في كل اتجاه، واعتماد متبادل عالمي بين الأمم».

من المؤكد أن كثيرا من المعلقين البارزين في القرن الـ ١٩ تصدوا بالدرس والتحليل لنشأة الشبكات العالمي. بيد أننا لا نرى الآن مثل ذلك الاندفاع نحو إبراز أعمال أشخاص مثل جون ستيوارت مِل أو بول لوروا بوليو.

إن الأثر الضمني المترتب على تجدد شعبية ماركس يتلخص في أنه أصبح من المقبول عالمياً الآن، بعد أن أصبح النظام المالي في قلب المشكلة، أن يُنظر إلى الرأسمالية باعتبارها نظاماً معطلاً في صميم جوهره، والحقيقة أن وصف ماركس لما أطلق عليه «التعلق الهوسي بالسلع». أو ترجمة السلع والبضائع إلى أصول يمكن تداولها، دون اعتبار لعملية تصنيعها أو قيمتها كمنتج نافع. يبدو وثيق الصلة بالعملية المعقدة المتمثلة في تحويل الأصول إلى أوراق مالية، حيث تبدو القيمة محتجبة داخل معاملات غامضة.

ومن تحليل الطبيعة المخادعة لهذا النوع من التعقيد جاءت توصية البيان الشيوعي، التي تبدو في غاية الجاذبية في نظر «الماركسيين» المعاصرين، باعتبارها النقطة الخامسة ضمن برنامج مؤلف من عشر نقاط. والنقطة الخامسة التي سبقتها التوصية بمصادرة ممتلكات كل المهاجرين والمتمردين تتحدث عن «تركيز الائتمان بين يدي الدولة، عن طريق بنك وطني، إلى جانب ملكية الدولة والاحتكار الشامل». والمشكلة الرئيسة التي برزت في أعقاب الأزمة المالية التي يمر بها العالم اليوم هي أن البنوك لم تعد توفر الائتمان اللازم لتغطية المعاملات العديدة المطلوبة للتشغيل الأساسي للاقتصاد. وحتى إعادة تمويل البنوك عن طريق المساعدات التي تقدمها الدولة لم تكن كافية لإنعاش النشاط الاقتصادي.

وفي مواجهة المصاعب التي تواجهها كبريات شركات تصنيع السيارات وصغار الموردين على السواء، فإن عديدا من المراقبين يطالبون الدولة بإرغام البنوك على الإقراض كجزء من خطة الإنقاذ، حتى إن المعلقين المؤيدين للسوق تبنوا الرأي الذي يؤكد أن السوق لن توفر القدر المطلوب من الائتمان.

كان أسلوب فرض الإقراض من جانب الدولة قد اتُبع في الماضي، وليس فقط في الأنظمة الاقتصادية الشيوعية التي تتسم بالتخطيط المركزي. إذ كان ذلك الأسلوب يشكل جزءاً من مستودع الموارد المعتاد لدى البلدان الأوروبية في مرحلة مبكرة من تاريخها المعاصر حين كانت تتعامل مع دائنيها. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة كان المنهج نفسه يشكل صميم السياسة الاقتصادية الفرنسية.

وفي عهد أقرب إلى وقتنا الحاضر، في مطلع الثمانينيات، عمل صندوق النقد الدولي على توحيد جهوده مع البنوك المركزية في الضغط على البنوك لإرغامها على تقديم مزيد من الائتمان للبلدان الكبرى المدينة في أمريكا اللاتينية.

ولقد تذمر عديد من المصرفيين بشأن اضطرارهم إلى إهدار المال من دون نتائج مؤكدة النجاح، إلا أنهم استسلموا تحت التهديد بفرض مزيد من التدخلات التنظيمية.

ولقد ترتب على ذلك الائتمان القسري نوع من المفارقة فقد أنقذ حل الثمانينيات البنوك (والمصرفيين) من أزمة الديون، إلا أنه كان سبباً في الأمد البعيد في تزايد أعباء السداد، الأمر الذي أدى بدوره إلى تدني مستويات المعيشة في أمريكا اللاتينية. وكان الحل الأمثل يتلخص في تقليص الديون في مرحلة مبكرة من الأزمة.

وفي ظل الظروف الراهنة فربما كان النظام المالي ليصبح في حال أفضل إذا ما تم تطبيق نسخة معدلة من الخطة الأصلية التي اقترحها هنري بولسون وزير خزانة الولايات المتحدة، التي كانت تتلخص في شراء الأصول الخطرة ورفعها من دفاتر موازنة البنوك. ولكن تبين في النهاية أنها خطة معقدة للغاية، وذلك لأن تقييم كل أصل على حدة كان من شأنه أن يثير مشاكل مختلفة وفريدة من نوعها.

في محاولة للهروب من هذا النوع من التعقيد، انتهت بنا الحال إلى البحث عن الحلول البسيطة. أثناء افتتاح مبنى جديد تابع لكلية لندن للاقتصاد سألت ملكة إنجلترا لماذا لم يتوقع أحد حدوث الأزمة. والحقيقة أن أوضح توقع لهذه الأزمة كان من جانب اثنين من الممثلين الكوميديين البريطانيين (جون بيرد وجون فورتشن) في إطار برنامج تلفزيوني قُدِّم منذ أكثر من عام، في وقت كان فيه كبار الممولين من أصحاب النفوذ ما زالوا يمرون بمرحلة الإنكار.

أو نستطيع أن نقول بعبارة أخرى إن العالم المالي بلغ مرحلة أشبه بموسم الكرنفالات، حيث أصبح الحمقى حكماء وتحول الأذكياء إلى بُلَهاء. وهذا لا يعني بالضرورة أن حلول البلهاء كانت منطقية. وحين يبدأ النشاط الاقتصادي من جديد بعد فترة من الركود العميق، فلن يكون ذلك راجعاً إلى اضطرار الناس إلى تحويل الموارد المالية نحو المشاريع المنتقاة باعتبارها مرغوبة سياسيا، بل سيكون ذلك نتيجة لابتكار أفكار جديدة. والحقيقة أن احتمالات نجاح عدد ضخم من صناع القرار في تحديد هذه المشاريع الجديدة أعلى كثيراً من احتمالات نجاح نسخة مركزية من التخطيط المالي في القيام بالمهمة نفسها.

ربما كان إحياء «الماركسية» نتاجاً ثانوياً محتماً للأزمة الراهنة. ولكن يتعين على أنصار هذه النزعة أن يفكروا في النتائج المأساوية التي ترتبت على انتهاج المركزية في توفير الائتمان في الماضي.

نرجمة احمد هاشم

كارل ماركس وفريدريك انجلز

للصداقة قيمة جمالية

عبد العزيز لازم

لم يزودنا تاريخ الفكر البشري بمثال واحد عن علاقة شخصية بدأت من الرأس وحتى الوجدان كتلك العلاقة التي ربطت بين فيلسوفين سياسيين ثوريين في ظروف لا تؤدي بالضرورة الى خلق صداقات ذات بعد استثنائي . كانت الصداقة بين كارل هاينريش ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وفريدريك انجلز(١٨٢٠-١٨٩٥) صفحة عاكسة لجملة من المواقف والتاملات الداخلية وجهود التنقيب المستقل فضلا عن ذلك النوع من االعاطفة غير المعلنة التي تفاعلت دون اتفاق . لم يكونا توامين ولم يولدا في مدينة واحدة ولم يجلسا على مفاعد دراسية متقاربة ولم يقضيا اوقات طفولة في شارع او حي واحد ، بل ان تاريخي مولدهما وموتهما كانا مختلفين . اما الانتماء الطبقي لكليهما فلم يكونا متطابقا ايضا . جاء كارل ماركس من عائلة تنتمي الى الطبقة الوسطى في مدينة (ترير) الالمانية وتلقى ثقافته الاكاديمية في مدن بون وبرلين وجينا .في عام ١٨٤٢ وبعد مساهماته في صحيفة (راينشة تسايتونك) اصبح محررا فيها فصارت كتاباتها بذلك تثير الجدل بل ومخاوف السلطات لأنها كانت توجه النقد الى الظروف السياسية والاجتماعية التي كان المجتمع في المانيا يعيشها . لحد هذا العام لم يظهر انجلز في حياة ماركس . بل ان انجلز الذي ولد في مدينة «بارمن» (برتال الآن) والذي انحدر من عائلة بروتستنتانية ثرية ارسل الى انكلترا من قبل عائلته لدراسة الطرق التجارية في مصنع للغزل في مانشستر ، وهناك كان وجها لوجه مع المعاملة القاسية التي كان يتلقاها عمال مصنع النسيج فاصدر كتابا مبكرا بعنوان (ظروف الطبقة العاملة في انجلترا) بين عامي ١٨٤٢ و١٨٤٤ الذي يسلط فيه الضوء على الظلم الشرس الذي كان العمال الصناعيون وعمال المناجم والعمال الزراعيون يتلقونه من الراسماليين في بداية القرن التاسع عشر . اتصل بحركة الشارترية (الوثيقية) وهي حركة تدعو الى توسيع حقوق العمال في التصويت ثم قام بعمل دراسة عن الاقتصاد السياسي وعبر عن قناعته بان شرور العصر هي نتيجة حتمية لهيمنة مؤسسة الملكية لخاصة ولايمكن ازالتها الا بالنضال الطبقي الذي يبلغ ذروته في المجتمع الشيوعي . ان تلك النشاطات المستقلة قد اسست السمعة المميزة لفريدريك انجلز كاقتصادي سياسي ثوري من جهه وأقامت عناصر التماثل في الافكار بله في وسائل البحث بينه وبين صديقة القادم كارل ماركس الذي لم يلتق به لحد هذه المرحلة (١٨٤٤) من جهه اخرى . في وقت آخر من تلك السنة (١٨٤٤) فقط التقى انجلز ماركس حينما زاره في باريس . وكان ماركس قد نشر بعض الأعمال حول الفكر الشيوعي . لقد اكتشف الرجلان انهما قد توصلا بشكل مستقل الى افكار متطابقة . واكتشفا ايضا وبسرعة غريبة عناصر الصداقة التي جمعت بينهما ليس اثناء حياتهما فقط ، بل واصلت تلك الصداقة الاسطورية فعاليتها وحيويتها حتى بعد وفاتهما . وقد تباهى بها لينين بعد ذلك في القرن العشرين واعتبرها واحدة من الانجازات الجمالية الشيوعية التي لم يستطع المجتمع الراسمالي انتاج مثيلا لها وقد تحداهم علنا ان هم ذكروا مثالا حياتيا على نشوء صداقة تشبة تلك التي ربطت بين ماركس وانجلز ،بل كان لينين يعتقد ان تاريخ الفكر البشري باسره لم يقدم نموذجا من نماذج الولاء الثنائي الطوعي المتبادل بين مفكرين استطاع عنصر التكامل بين نشاطهما الفكري ان يؤسسس لصداقة متعددة الجوانب وراسخة في التاريخ.

بعد لقاء باريس تعاهد الصديقان على العمل معا وكان ذلك العنصر هوالعنصر الاقوى من بين العناصر الاخرى في تعميق روح الصداقة بينهما . ان هذا التعاون الذي استمر حتى بعد وفاة ماركس (١٨٨٣) اتخد اتجاهين رئيسيين اولهما الشرح المنهجي لمبادىء الشيوعية التي عرفت فيما بعد بالماركسية وثانيهما العمل من اجل تنشيط الحركة الثورية في العالم من خلال الاممية الشيوعية . وقد اتفقا على نوع من تقسيم العمل فيما بينهما ، فرغم ان كلاهما بذلا جهدا مكثفا لدراسة الفلسفة الا انهما قررا وفق اتفاق تقسيم العمل ذاك على ان يقوم ماركس بتناول الفكر السياسي والاقتصادالسياسي والتاريخ الاقتصادي . بينما ركز انجلز على العلوم الطبيعية والرياضيات وعلم الانثروبولوجيا والعلم العسكري واللغات . وقد انتج ذلك النشاط التكاملي للصديقين من اجل الفكر الجديد ظهور اعظم بيان عرفه التاريخ الحديث في الشرق والغرب وهو البيان الشيوعي الذي لا يستطيع أي ادب سياسي ثوري في العالم ان يتجاوز تاثيراته ولا يستطيع أي ادب شيوعي الا ان يعود اليه باعتباره مرجعا فكريا شاملا رغم ايجازه . فماذا كانت آلية ظهور تلك الوثيقة ؟ لقد وضع انجلز نفسة مسودة البيان وعرضه على ماركس الذي اعاد قرائته ثم وضع الصيغة النهائية له . وهذا مثال يوضح مدى مساهمة فريدريك انجلز في بناء الفكر الشيوعي . وثمة مثال آخر لا يقل اهمية وخطورة عن ذلك هو ان ماركس لم يستطع اكمال الجزئين الثاني والثالث من كتابه الرئيس (راس المال) بسبب الارهاق والفقر المدقع فضلا عن انشغاله في ادارة المجلس العام للأممية ، فبعد وفاته قام صديقه انجلز بانجاز تحرير ذينك الجزئين استنادا الى ملاحظات ومسودات تركها ماركس نفسه وطبعا بفضل مساهمات انجلز ايضا الذي تكاملت افكارة الشيوعية مع افكار صديقه .

اما الفقر المدقع الذي كان يعيشه ماركس في لندن فكان ايضا حقلا آخر يرسم صورة الصداقة النادرة مع انجلز فلولا مساعدات انجلز المادية لماركس لما استطاع الاخير ان ينجز الكثير مما انجزه بل لما استطاع الاستمرار في الحياة كما يرى بعض مؤرخي الشيوعية . في رسالة مؤثرة ينقلها ديفيد ريازانوف في كتابه (كارل ماركس وفريدريك انجلز ، مقدمة عن اعمالهما وحياتهما) كتبها ماركس الى انجلز وكان يواجه صعوبات جمة في اعداد الجزء الأول من كتابه(راس المال) للنشر : (لقد انتهيت من هذا الجزء اخيرا ، انني مدين لك في امكانية انجاز ذلك. فبدون تضحياتك الشخصية من اجل تقديم الدعم كان من غير الممكن بالنسبة لي الاستمرار في العمل الشاق من اجل وضع الاجزاء الثلاثة .» الفصل الحادي عشر من كتاب كارل ماركس وفريدريك انجلز)

كانت مساهمات انجلز في دعم صديقه ماديا ذات اثر كبير في تمكينه من العيش ومواجهة العوز المعيق لأنجاز الكثير من الاعمال الفكرية والثورية فقد كان ماركس ومن بعده انجلز دائمي الاتصال بالثوريين في مختلف انحاء العالم من خلال الاممية الاولى التي انحلت عام ١٨٧٢ ومن ثم تكوين الاممية الثانية عام ١٨٨٩ والاخيرة انبثقت بعد وفاة ماركس بمساهمة نشيطة من قبل انجلز الذي اصبح عضوا في مجلسها العام . ان ارسال انجلز الى مانشستر للعمل في مصنع النسيج هناك قد مثل انعطافة كبرى في حياته الفكرية والسياسية وقد احتفظ بوضعه الوظيفي كاجير في المصنع حتى بعد وفاة والده الذي ترك ثروة كبيرة كرجل اعمال ، الا انه تخلص من العلاقة التجارية ضمن تلك التركة بعد فترة قضاها عضوا في قيادة الشركة المتولدة وكان يصفها ب(تجارة الكلاب) . وقد اعلم صديقه بانه كان يحاول الاتفاق مع شركائه بالاحتفاظ بوضع يمكنه من تحقيق الاستقلال الاقتصادي له ولصديقه ماركس لتدبير امور عيشهما الضرورية قبل الانفصال عنهم وترك تلك التجارة وقد احيل على التقاعد بعد خمسة اعوام . لقد استطاع تخفيف العبء المعيشي عن ماركس بكرم فائق لم يكن ميسورا في تلك الايام التي تصاعد فيها التكالب على المصالح الانانية بفضل طبيعة العلاقات بين الناس التي اشاعتها الراسمالية في حياتهم.

شارك انجلز صديقه ماركس في جميع مراحل بناء الحركة الثورية في العالم فقد رافقه الى كولون عام ١٩٤٨ لمتابعة الثورة التي اندلعت في بعض الاقطار الاوربية واصدرا سوية صحيفة شيوعية لخدمة الثورة وبعد فشلها عادا الى لندن . واثناء اعوام ماركس الاخيرة تسلم انجلز زمام عضوية المجلس العام للاممية الثانية بعد ابتعاده عنها لفترة طويلة ، لكنه استطاع مواصلة الاتصال بالثوريين في العالم مستفيدا من اتقانه لأثنتي عشر لغة معروفة وموظبا قدرته على النقاش والاقناع في علاقاته مع الثوريين في مختلف انحاء العالم .ورغم انه اصدر اعمالا عملاقة في المجال الفكري الماركسي مثل (ديناميكتيك الطبيعة) و(اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) و(ضد دوهرينك) وغيرها الا انه عرف بقوله الشهير المشحون بالجمال الانساني وعنوان التواضع حول علاقته بماركس:(لقد كنت دائما عازف الناي الثاني الى جانب ماركس.) فاي جمال يتزين به الفكر ومناهج التغيير أكثر من ذلك ؟

مصادر
- كارل ماركس وفريدريك انجلز ، مقدمة حول اعمالهما وحياتهما ، الفصل الحادي عشر ___ ديفيد ريازانوف
- مايكروسوفت ستودينت ٢٠٠٩ – انكارتا

manarat

التحرير
علي حسين
الغلاف برؤية
علاء كاظم
التصميم
مصطفى محمد
التصحيح اللغوي
خليل الاسدي

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

ماركس فيلسوف كل العصور

عندما كانت الطبقة العاملة ومعها كل شغيلة العالم تعاني من قساوة اصحاب المصانع الكبيرة لطمس حقوقهم الطبقية والانسانية ، ظهر شاب الماني (كارل ماركس) ليضع نظريته الفذة في الصراع الطبقي والقائمة علي نقد اجتماعي واقتصادي واثبت بان الوسائل المنتجة تولد حركة التاريخ طبقا لتصوراتها وتناقضاتها وان البشرية في نضالهم مع الطبيعة وتناقضاتها في حركة دائمة لا تتوقف وان طريقة استثمار ميزات الطبيعة في انتاج الحاجات المادية ليست منعزلة بل مجموعة مترابطة خلال عملية الانتاج وهذه هي علاقات الانتاج في النظرية الماركسية وهي في الحقيقة علاقات ملكية ، مشاعية وعبودية او اقتصادية او رأسمالية و(الاشتراكية) وعلي اساسها يتم البناء النوقي (العلوي) لحقوق الطبقة العاملة والشغيلة عموما وان القوي المنتجة هي التي تنشئ الوضع الاقتصادي وعلاقات الملكية لكي تتطابق الاوضاع الاجتماعية مع الوضع الاقتصادي.

وقد اكد ماركس ظهور التناقض الطبقي والذي يعكس تناقض وسائل الانتاج وعلاقات الملكية هي اساس الصراع والذي يؤدي الي تغير القيم الفكرية وكانت صياغة ماركس لهذة الرؤية نتيجة الظروف التي عاشتها الرأسمالية في تلك الحقبة وقام بدراسة الاسباب التي تمنع العقل من ان يعكس بشكل مباشر لبنية الاشياء وبالتالي ماهي الاسباب التي جعلت الفكر الانساني في كل ادواره يري الاشياء طبقا لدعواه هو لا طبقا لذاتها (الاشياء) وان الاعماق وليدة السطوح وانه (ماركس) ينظر الي الواقع لا كشئ في ذاته وانما بتباعده مع نفسه.

لقد رفع ماركس الدعوة ضد الطبقة البرجوازية كما رفعتها البرجوازية ضد النبلاء والكنيسة واكد ان الايديولوجية تخفي مصلحة الطبقة العاملة وعلل قوله استنادا الي تطور التاريخ والتي تحول ممارسة السياسة في اتجاهين مختلفين احدهما الاتجاه الاصلاحي الديمقراطي والاخر الانقلابي الثوري.

الاتجاه الاول كان هم الاتجاه العام للاشتراكية في عدد من الاقطار الاوربية الغربية التي بدأ للاشتراكيين في ضوء ماحصل لها من التقدم السياسي والاقتصادي وان الثورة غير ضرورية ، اما الاتجاه الثاني فقد سيطر علي الحركة الاشتراكية في اوربا الشرقية والتي لم تشهد ظروفا فكرية وسياسية واقتصادية مماثلة لظروف تحوي اوربا .

لقد درس (كارل ماركس) مستقبل الانسان ووضع العلاج لكل المشاكل التي تعاني منها الانسانية والطبقة العاملة حيث الفقر وسط وفرة وتدهور البيئة مع التقدم الصناعي والازمات الاقتصادية ونقص في المواد وانتشار غير محكوم لعملية التوفر واتساع المدن وفقدان الامن في العمل وبين العمال الطبقة الاكتر ضررا من هذة الفوضي واكد ان مشكلات العالم يعود لطبيعة النظام الاقتصادي والقائم غلي استغلال الانسان لاخيه الانسان حيث الدول الرأسمالية في الغرب والطبقات الرأسمالية المحلية تعيش علي استغلال الغالبية وتغرس فيهم الاستهلاك هدي للحياة ولذا فان فيلسوفنا يري ان السبيل الي تفادي كارثة عالمية هو بناء مجتمع جديد ذي طبيعة اشتراكية ينتهي الاستغلال وتتأكد مشاركة جماهير الطبقة العاملة بشكل خاص وعموم الناس في عملية الانتاج وفرض العدالة الاجتماعية بين شعوب العالم علي السواء و دون تميز كما و نادي الي تحقيق هياكل اقتصادية جديدة و مستقلة مع الألتزام في تحقيق التكامل في موارده و في جميع اوجه الحياة وكان كارل ماركس علي ثقة بأن ترك الامر لشعوب الدول المتخلفة لأختيار ما تريده وفقاً للأستراتيجية الاقتصادية والتنموية الخاصة بها ووضعتها هي علي هدي واقعها الجديد (النظام الاشـــتراكي).

لقد حاول صاحب النظرية الأشتراكية العلمية التنبؤ بالمستقبل المشرق للأنسان و ان المجتمع مابعد الاشتراكية سيؤثر علي الانسان في علاقتة ببيئته وفي تحديد مصير المجتمع وتكوينه وسوف يؤثر علي التحولات السيكلوجية في وعي الانسان وقيمه الاخلاقية وهكذا كان ماركس يضع الانسان في اهتمامه وفي المقدمة دائما علي ضوء الزيادة الانتاجية بل وفي ضوء زيادة انسانية الانسان